
إشراقات أدبية
٢٧
السيف.. والوردة
حسن الجوخ
تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

إشراقات أدبية

(نصف شهرية)

رئيس التحرير :

عبد العال الحمامصى

نائب رئيس التحرير :

محمود العزب

مدير التحرير :

أحمد الحوتى

الإخراج الفنى :

محمد قطب

رئيس مجلس الإدارة :

د. سمير سرحان

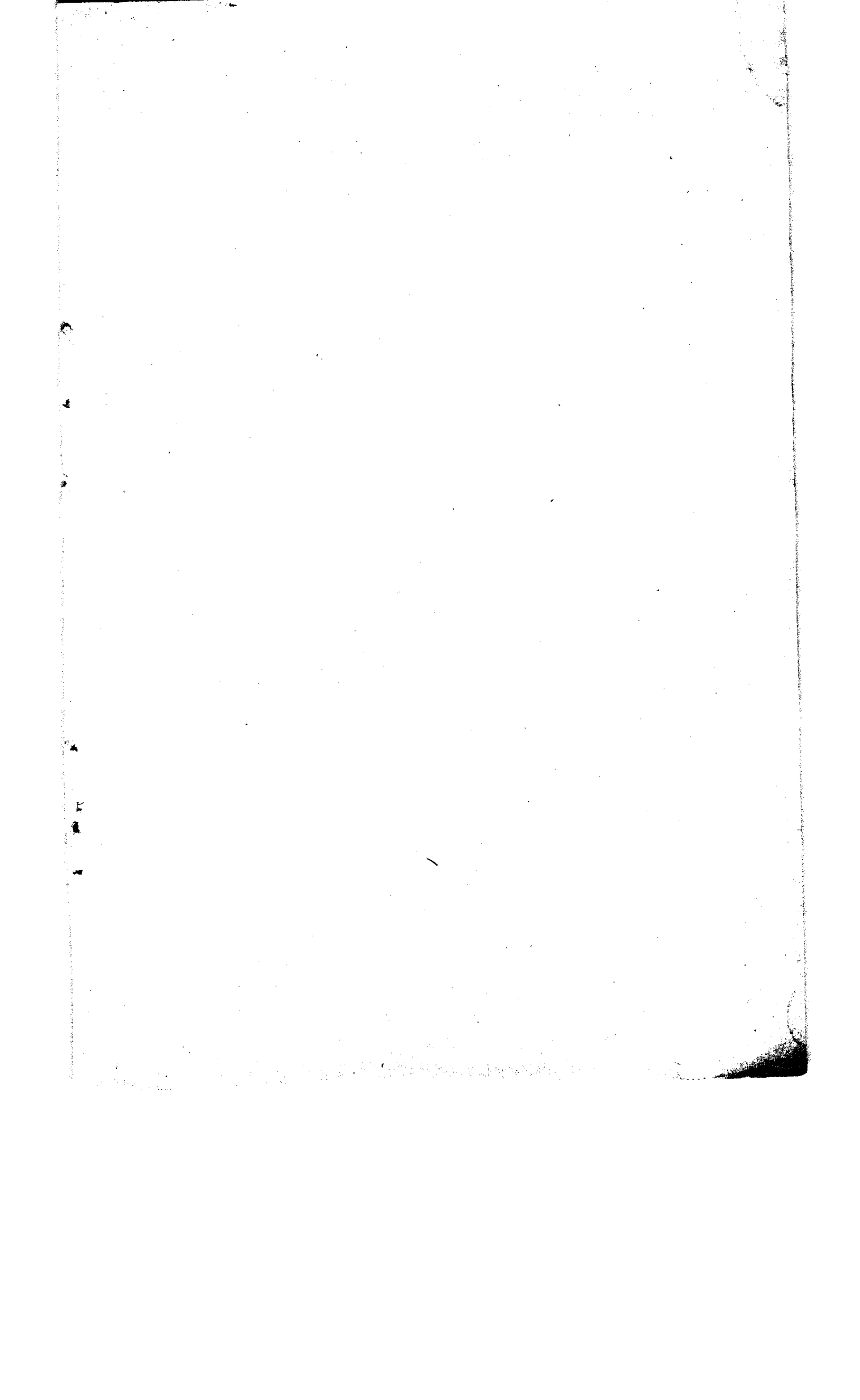
١٥ يوليو ١٩٨٨

تصدر عن :

الهيئة المصرية العامة للكتاب

كورنيش النيل - رملة بولاق - القاهرة

السيف والوردة



إهـــداء

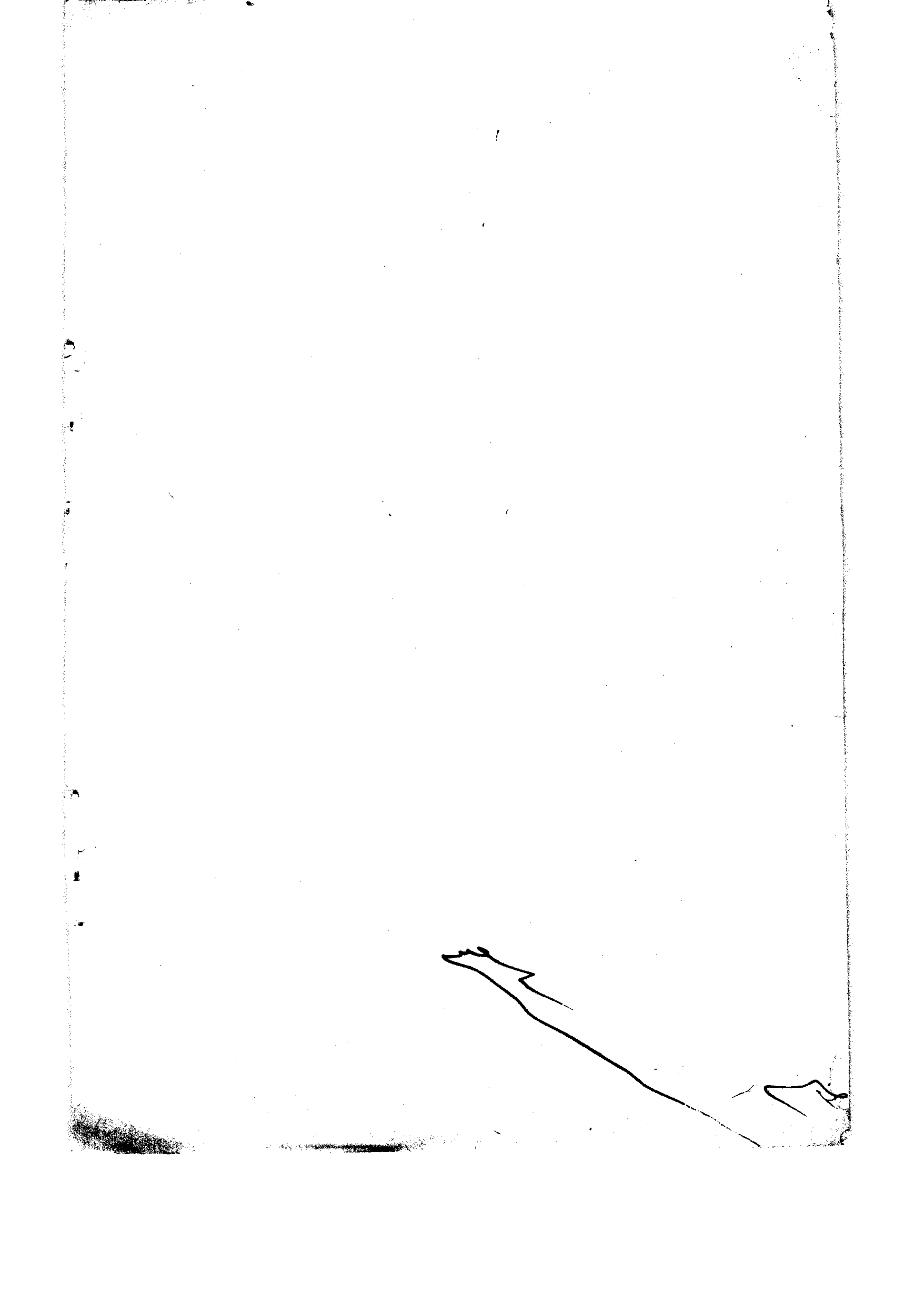
الى أرض الصبر ،

نبع الحنان ،

رمز العطاء ٠

أمي ٠ ٠ ٠

حسن



حتى هذه اللحظة لم أنس زمجرة النهر داخله ، أو ملامح وجهه المتوترة ، ونقده اللاذع لسلوكيات الناس ومواقفهم •• جمعتنا ذات يوم ظروف متشابهة : الفقر ، الطموح ، والبحث الدائب عن كل ما يضفى على الحياة جمالها •• فالحق أن صديقى كان ذكيا لماحاً ، وشاعراً حساساً ، يشعر حتى بهسيس الأرض تحت قدميه •• ذا قلب من ذهب •

ظهر اليوم دق الباب بعنف ففتحت ، رأيته عودا ذابلا أطلق لحيته حتى تدلت على صدره •• وكانت عيناه حمراوين ، قلقتين ، مذعورتين •• بلع ريقه بصعوبة ، تلعثم فى حلقه لسانه •

قال بصوت ذابل :

ـ أنا جئت اليك .

ـ أهلا .. **أهلا** .

تمتمت بحزن فى سرى : « ما أبشع ما تلاقى دفقة صدق فى سراديب الكذب » تنهد تنهيدة خلتها حرقت ألف شيطان ، ثم أردف :

ـ طوب الأرض تبرأ منى .. لا تطردنى .

كانت نبرات صوته مبللة بالمرارة والانكسار فتتت كلماته نفسى . بل شدت شعر رأسى . كاد يطفر الدمع رغما عنى . على شفتى رسمت بسمة محاولا اظهار ودى . اقترب منى ، فقلت فى سرعة :

ـ ما هذا ؟! . أدخل لا تفسد اللحظة . أنت أحب الأصدقاء الى .

ارتمى فى حضنى . عانقنى . عصبيا كان . كاد يكسر عظام صدرى ، لكننى شعرت بدبيب الدفء فى كيانى يسرى ، همس بصوت دامع :

ـ أنا جئت اليك، فمهما تباعدنا يجذبنى شىء ما .

حينما تأملته ، كان الشعر الأبيض يملأ فوديه ، ويزحف متناثرا بين شعيرات ذقنه المدبب الطويل ،

وأسفل جفنيه مبـاشرة كانت هنـاك خطـوط دقيقة متعرجة • وفوق الجبهة ترك الزمن أثار معاركه واضحة جلية • ضرب يده فى جيب سترته فأخرج علبة صغيرة • فتحها وتناول حبـة ، مد يده لى بأختهـا فرفعت يدى رافضا ، دقق النظر فى وجهى لحظة • ثم شرد لحظات • برقت عينان بنيتان من فوق صنية لامعة ، وضعت فى خفة لم نشعر بها • قلت كى أخرجه من شروده المثير :

ـ أين أنت الآن ؟! •• أيها الصحفى الكسلان •

ـ قال فى صوت ساخر يثير الشجن :

ـ الصحفى ؟! •• هيء •

برهة صمت ، وفجأة قهقهه كعادته قهقهة ارتج لها صدره ذو الضلوع النافرة فاهتز فنجان القهوة فى يده، وكاد يندلق فوق ملابسه المتسخة الكالحة ، مسح بظهر يده دمعة طفرت لامعة فأعطت عينيه بريقـا أخاذا ، قال :

ـ اسخر ما شئت يا معلم الصبيان •

ثم أردف فى سرعة :

ـ أين قصصك الجميلة التى كانت تفوز ـ دائما ـ الجوائز الأولى على مستوى الجامعة •

أطرقت ساهما ، ورحت أرسم بملعقة الشاى فوق السكرية خطوطامتقاطعة متعارضة يجف حلقى لرؤيتها، وترتعد نفسى لمنظرها ·· خرج صوتى حسيرا يصـور انسانا وسد التراب أجمل أحلامه :

ـ دعك من هذا ·· لا تقلب المواجع ، مطالب الحياة دوامة شرسة لا تعطى فرصة التقاط الأنفاس ·

ـ الموهوب يجب ··

أراد أن يفسر ·· ولما كنت أعـرف أنه دائمـا يحاصرنى ، بل يعرينى قاطعته بسرعة :

ـ وأنت ؟! ·· أين أفكارك الجريئة ؟ كم أدهشتنا أيام الجامعة !! ·· تصورناك وقتها قادرا عـلى تغيير العالم ·

بصوت خافت يقطر حزنا ومرارة فى آن معا قال:
ـ طموحات شباب : كانت تثق ثقة بلهاء فى كلام الأكابر ·

ـ السؤال مازال قائما ·

رد بسرعة متعجبا :

ـ أمازلت ساذجا ؟ ·

قلت لك مرارا : دعك من قراءة الروايات ، اقرأ اقتصادا ٠٠ تبحر فى السياسة ٠ عايش الواقع بعينى صقر ، فالكلمة الوردة مازالت خلف السيف بمسافات ومسافات ٠

ثم صمت ، وراح يقلب جيوبه فى لهفة ٠ أخـرج العلبة ٠٠ تناول حبة وشرد ٠٠ ظل يبحلق فى لاشىء ، تركنى أكلم نفسى بصوت مسموع كمن اختل عقله ، فشعرت بالحرج وسكت ٠٠ ابتسم ٠ قال :

ـ اسمع يا صديقى الطيب ٠ دائما أكتب ، ولن أتوقف يوما عن الكتابة ٠ لأننى فى الواقع لا أستطيع غير ذلك ٠٠ ولم ينشر لى ؟! ٠

ـ لماذا ؟! ٠

ـ عرفوا ما لم يعرفه الآخرون ٠

قلت متعجبـا ، وقد فـرغ صـبرى ، وتـوترت أعصابى :

ـ عرفوا ماذا !؟ ٠

ـ عرفوا أن الكلمة الكلمة تنطق دود الأرض ، تسقط عروش الكذب تهز تيجان الملك ، و ٠٠

فتح الباب ، دخلت زوجتى فى تلك اللحظة بالذات كنسمة رقيقة فى جو خانق • سلمت بأطراف أصابعها، جلست على أحد المقاعد واضعة ساقا على ساق •• تأملها •• تأملته ، هالنى ما ظهر على وجهه من اشمئزاز واضح • مال على أذنى هامسا فى نبرة جادة وبعد أن حك أرنبة أنفه المدببة حوالى ثلاث مرات :

ـ لزوجتك رائحة مقبضة ، لا تؤاخذنى ، أنت تعرف صراحتى •

تلعثم فى الحلق الجاف لسانى لحظة بارقة ، قلت وقد شابت نبراتى بعض حدة :

ـ غير معقول هذا • أنا لا أراك اليوم فى عقلك القوى ، أو احساسك الشفاف •

نظرت زوجتى لى فأطلت من عينيها أكثر من علامة استفهام قلت متصنعا الهدوء :

ـ صديقنا يشم رائحة كريهة تحاصر رئتيه •

قالت فى دهشة لا تخلو من عجب :

ـ رائحة كريهة ؟! •• بالتأكيد ليست هنا •

وتصلب لسانها لحظة خاطفة •• ثم أردفت :

ـ دورة المياه نثرت فيها صباح اليوم كمية كبيرة من المطهر ٠

أومأت برأسي مؤكدا ، وقلت فى برود :

ـ أنا شخصيا لم أشم أية رائحة ٠

ثم رفت على شفتي ابتسامة هادئة ٠ ولكنها شعرت بشيء من الحرج فانصرفت ، وتركتنا وحيدين ٠٠ نظر الى نظـرة فاحصـة ماكرة ٠٠٠٠ ومستريبة ، ثم حك أرنبة أنفه ـ أكثر من مرة ـ وقال بصوت جاد واثق :

ـ هذه الرائحة اللعينة تطاردني فى كل مكان ، وتسبب لى الـكثير من الاحـراج بل سممت جسـدى بالأمراض ٠

وفى نرفزة واضحة بلع حبة من العلبة اياها ، ثم سرح ٠٠ بعد لحظات جذبته من شروده :

ـ ولذا لم أقرأ لك منذ مدة طويلة ٠

ثم هرشت جبيني ، وأردفت :

ـ الا من كلمات مبتورة ٠ ٠٠ رأيتها غريبة عن روحك ٠

ـ هذا التشويه تلطيت كثيرا بناره ٠٠ رح أسأل رئيس التحرير ، أو من وراءه ٠

ثم قال فى يأس واضح ، وبقرف ظاهر مغيرا دقة الحديث :

ــ لا داعى للمكابرة ‥ اعترف بعجزى ‥ أنا فعلا عاجز ‥ أرهقت نفسى كثيرا بلا جدوى ‧

قلت فى صوت صادق ودود :

ــ أنت بالفعل مرهق جدا ‥ واضح عليك الاعياء ‧

تركته يسند مؤخرة رأسه بظهر المقعد ، وخرجت للصالة شاعرا بدوار شديد ‧ همست لزوجتى ففهمت كالعادة دون سؤال ‥ ثم دخلت عليه ‥ رثيت لحالينا معا ‥ قلت :

ــ الحمام جاهز ‥ اغتسـل وتخلص من هـذه الثياب ‧

ركز نظـراته فى عينى فنكست وجهى متحاشـيا النظر اليه ‧ قلت بصوت مخنوق :

ــ غير ثيابك حتى تأكل وتستريح ‧

دارت عيناه فى سرعة غريبة فتطاير منهما الشرر‧ هب واقفا مذعورا ‧ ردد بصوت عال مذبوح :

ــ « ثيابى ملكى ‥ شعرى ملكى ‥ قدماى ملكى

.. أظافرى ملكى .. صوتى ملكى .. يداى ملكى» .

حينما سكت لمعت عيناه ، واغرورقتا بالدموع .. قال فى صوت متهدج حزين :

ـ العالم كله ملكى الا الأرض التى تطؤها قدماى .. آه .. أصبحت لا أفهم شيئا مما يدور حولى .

على صوته أطلت زوجتى من الباب الموارب ، ومن خلفها ابنتـاى « نجـلاء ونرمين » .. ولحظة وتدفق الجيران .. نظروا فى اشفاق .. ولما برزت ألسنة حب الاستطلاع قطعتها بنظـرة يعملون لها ألف حسـاب ، مصمصوا الشفاه . خرجوا فى خطوات متسائلة .. ابتسمت له ابتسامة لا معنى لها مزيلا حرج اللحظة . وما حدث من ارتباك .. قلت بود :

ـ الحقيقة .. أنت فى حاجة ملحة الى استشـارة طبيب .

نظر الى بسخرية شديدة . وهم أن يتكلم ، لكنه صـمت فصـمت .. ثم .. ثم تلاقت نظـراتنا فى انكسار .

(يوليو ١٩٨٤)

الرحلة ٠٠ !

أثــارت فكرتى عاصــفة بين الأصــدقاء ، حتى تطاولت الأيدى وصفعتنى عــلى قفاى ٠ لم أستســلم لعاصفتهم الهوجاء ، مازالت رحلة «البحث عن الحبيبة» فكرة تروقنى الى حد بعيد ، يبدو أنى طموح جدا ، دون أن أعلم ! ٠ على كل أنا رجل ، وسأتحمل تبعات ما قررت :

ـ الرجولة ليست كلمات يا عاشق نادى السعادة ٠

ـ أقسم بكل عذارى العــالم اننى أملك شــجاعة التنفيذ على أقل تقدير ٠

ـ ها ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠ آبله بلا شــك ٠٠ آبله بلا شك ٠

ـ غريبة ؟! ٠٠ ما دامت لكل منـكم حبيبته فما المانع فى أن أبحث عن حبيبتى ؟!

ـ لا يا عبد ٠٠ أخسر دينى أنت فقدت عقلك ٠

ـ اعذروه يا جماعة شرب كثيرا هذه الليلة ٠

قلت فى برود شديد أغاظهم جميعا :

ـ لا ٠٠ وشرفكم ، أنا فى كامل قواى العقلية ٠

ثم أردفت قائلا للجالس قبالتى فى ثقة واضحة :

ـ العب عشرة أخرى ، وسأكسبها يا ساذج ٠

جاء صـوت أحـدهم من احدى الزوايا ثعبـانا يتلوى :

ـ هذا المنحوس يفكرنى بشبابى ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠ ها ٠ قلت فى نبرات حازمة متعمدا أن يسمعنى الجميع:

ـ « البحث عن الحبيبة » هو الأمل الذى يربطنى بحياتكم التافهة ٠

جاء صوت كبير الشلة يطرق أذنى ساخرا :

ـ « البحث عن الحبيبة » اسم وجيه يصلح عنوانا لرسالة دكتوراة مرفوضة من أساسها ٠

بلعت ريقى بصعوبة ، وتكسرت الكلمات فى حلقى :

ـ الصمت أبلغ اجابة أيها البلهاء ٠٠ أنا خارج ٠ سخريتكم تحبس الدم ٠

خرجت زافرا ٠٠ مازالت كلماتهم ترن فى أذنى كصوت لحوح معاند ٠٠ ظلال سخريتهم تفترش ذاكرتى، وتفرض على التحدى فرضا ٠٠ من واقع التحـدى ، آسف ، من واقع رغبتى الجامحة ، بدأت خطوتى الأولى على الطريق ، وخطوة ثانية ، وثالثة ، وخطوة بخطوة تابعت رحلتى المنشودة عازما على البحث عن حبيبتى فى الريف البراح فالأصباغ فى المدينة شوهت الاشياء ، وزيفت الحقائق ٠٠ تابعت الرحلة جادا ، خلف ظهرى المساحات اللانهائية تمتد عبر الأفق عن شمالى ، وعن يمينى ٠٠ بخطوة تتبع الأخرى قطعت أكثر من ثلاثين كيلو سيرا على هذا الطريق الوعر ٠٠ تورمت قدماى فوق تراب الطريق الملتهب ٠

لحظة وصولى شجرة ضخمة وارفة الظلال استرحت ٠٠ مصادفة جلست بالقرب منى عرافة عجوز ، كانت متعبة بعد تجوالها بين القرى ٠٠ تبادلت معها بضـع كلمات فى ارهاق شديد ٠٠ بسطت حبيبات الرمل فوق المنديل المحلاوى محاولة اغرائى ٠٠ لم أقاوم ٠٠ رميت

« بياضى » ، خططت أصـابعها المعروقة حبيبات الرمل فى اتجاهات مختلفة ·· برهة صمت ·· حـدقت فى عينى بتركيز شديد :

ــ « أنت تبحث عن حبيبتك ، أليس كذلك، اطمئن ·· ستجدها فى انتظارك على امتداد أكثر من أربعين كيلو مترا ·· تسكن قرية منخفضة جدا ، بيوتها من القش والطين وشـظايا الـزجاج ·· حبيبتك يا بطل رائعة القوام ، شعرها أسود فاحم ، عيناها سوداوان ، وجهها قمحى اللون ، نشيطة الحركة ، نظراتها تغرى الملاك ·· ستراها فى شرفة بجـوار بيت العمدة ·· والقرية ستدخلها عند منتصف الليل ·· عند مدخـل القرية ستهاجمك مجموعة من الكلاب الشرسة ، ستمزق ملابسـك ، وتدمى جسـدك ·· نصيحتى أن تتحمـل فبدون ذلك لن تنال بغيتك » ·

قلت على سبيل المجاملة هازئا ساخرا :

ــ شكرا يا عرافتى النابهة ·

تحركت ــ على الفور ــ سـائرا ، يقـودني قدر لا طاقة لى برده ·· تجوب عيناى أقاصى الأفق كعراف يبحث عن سر جديد بين النجوم ·· خطواتى تتوالى فى

اصرار عنيد ٠٠ تلتهم قدماى الطريق فى حماس دافق ٠٠ الشمس تلقى تحية الوداع على أصدقائها ٠٠ الليل يرخى ستائره فى بطء معاند ٠٠ مشاعرى أضحت فى لون الشفق ٠٠ وداخلى فى حالة اشتعال حاد ٠٠ القرية المنشودة تلوح لى من بعيد ٠٠ الطبيعة تعزف سيمفونيتها الرائعة ٠٠ هانت ، لم تبق الا عشرة كيلو مترات ، وأصل ٠٠ على الرغم من الارهاق الشديد تلذذت بالسير ليلا على ضوء القمر المشنوق ٠٠ لا طفت جبهتى نسمات رقيقة حلوة ذكرتنى برائحة الحبيبة المفقودة ٠٠ يا سلام ، أخيرا وصلت اليها ومنتصف الليل ، ها هى ذى غارقة فى أبلغ صمت ٠٠ سقطت الصخرة من فوق صدرى ٠٠ تنفست الصعداء ٠٠ نباح الكلاب يعلن عن بقايا حياة وسط ظلام القرية الممزق :

ـ ٠٠ ٠٠ ٠٠

وهجمت على باقى الكلاب ٠٠ تمزقت ملابسى ، الخدوش والتسلخات تفترش جسدى ٠٠ كل هذا يهون فى سبيل الحَبيبة المأمولة ٠٠ لم أبال بملابسى ، لم أشعر بالخدوش أو التسلخات ٠٠ يبدو أن كلام العرافة مضبوط ٠٠ سأصل ، سأصل ٠٠ كل المقدمات تنبىء

بذلك ، من نشوة الأمل الجارف، شـدنى صـوت الخفير الخشن :

ـ من هناك ؟ ٠

ـ عابرسبيل ٠

ـ اقترب يا رجل ٠٠ الى أين ؟!

ـ الى منزل عمدتكم ٠

ـ لماذا ؟! ٠

ـ لأمر يخصنى وحدى ٠

ـ بيتى بيتك يا رجل ٠٠ تعال معى عـلى الرحب والسعة ٠٠ حصيرة الصيف واسعة ٠

ـ لن أطيب نفسا الا فى منزل عمدتكم ٠

ـ أنت حر يا ابن الناس ٠٠ هل أذهب معك ٠

ـ شكرا يا أمير ٠

ـ الغريب أعمى ، ولو كان مبصرا ٠

ـ لا غريب الا الشيطان ٠

فى دار العمدة رقدت حوالى الساعة لم أذق لذتهـا فى حياتى ٠٠ خوار ثور العمدة يجلجل فى الدوار ٠٠ بلا ارادة صحوت ، أضجرنى القلق ٠٠ فكرت فى لعبة

تسلينى ، على عتبة كل دار أوقدت شمعة ، هدانى تفكيرى الى هذه اللعبة بشكل تلقائى مفاجىء ‏٠٠‏ قطعا ستكون مفاجأة للقرية فى الصباح ‏٠٠‏ لعبة سخيفة ؟! لا ومسلية جدا ‏٠٠‏ نفذت المهمة ، وعدت سالما الى دار العمدة دون أن يدرى بى أحد ــ على حد التعبير العسكرى المشهور ــ الخفير النابه يغط فى سبات عميق ، ويصدر منه شخير سخيف ، رقدت ثانيا ، وبهدوء مــكدودا ، لم أدر متى أغرقنى النعاس تماما ‏٠٠‏ فى الصباح أيقظنى رجــل كالمارد :

ــ قم شف أكل عيشك يا أخ :

فى الحقيقة لم يكن لى عيش أشــوفه ، أو آكله ‏٠٠‏ خرجت من الدار على ريق النوم ‏٠٠‏ على بابهــا قابلنى رجل ، أحسست نحوه بعاطفة ما تشبه الصداقة ، عكست ملامحه نفس الاحساس حينما رآنى ، اخترقت الحاجز الوهمى مصافحا اياه ‏٠‏ تكلمنا ‏٠‏ تضاحكنا ، تكركرت ضحكته قوية صاخبة ذكرتنى بسخرية أصدقائى رواد « نادى السعادة » ما علينا ‏٠٠‏ قبلت دعوته عــلى فنجان شاى فى « نادى الحرية » وهناك تكلمنا ، تضــاحكنا ، وحينما وفد صــديق حــكى له عن سر رحلتى ، قهقه صديقه ضاربا كفه بالأخرى ، ثم قال بصوت عال :

ـ مجنون ، والله العظيم مجنون ! ٠

وتوافدت الشلة الواحد تلو الآخر ، كل منهم يردد ما قاله سابقه ـ بنفس النبرات وبنفس الحركات ـ عندما يسمع الحكاية ٠٠ ارتبك « نادى الحرية » ، تحلق الأطفال حول مدخله يدفعهم فضول جارف ٠٠ خرجت من « نادى الحرية » لاعنا الزمن الخائن بوحداته الثلاث ٠٠ تتبعنى الأطفال بهتافهم الصاخب المطارد :

ـ المجنون ٠٠ المجنون ٠٠ المجنون ٠

كان الهتاف المطارد ـ على الرغم من تفاهته ـ يزلزل نفسى ٠٠ « شخطت » فيهم ٠٠ نثرت سبابى فوق رءوسهم ، لم يبالوا ، ازداد الهتاف الطفولى حدة وعنفا، بدأ قذف الطوب والحجارة بصورة مزعجة ، شجت جبهتى طوبة ، وكسر ضلعى حجر ٠٠ ولكن مع قدوم الليل انتهت المطاردة حينما تهت، عن الأنظار فى تلافيف الظلام ٠

وفى الظلام راودتنى فكرة الانتقام ، وسرعان ما اقتنعت بها ، درت حول القرية فى اطراق غريب شارد ٠٠ اكتشفت ثلاث طرق تؤدى اليها ، على رأس كل منها كومت هرما من قش الأرز الناعس فى الأجران ، أشعلت الاهرام الثلاثة ٠٠ صار ليل القرية نهارا فى لحظات ، وصارت الأشياء غير الأشياء ، وربما عكس

الاشياء ·· هب الأهالى من مضاجعهم مذعورين ·· نظروا الى أمواج اللهب المتصاعد فى حيرة ·· لفوا حولى فى ذهول تام ·· صرخت بأعلى صوتى :

ــ أنا المشعل والمشعل ·· أنا الأبيض والأسود ·· الحقيقة فى عصركم يا سادة لم أعد أعرف من أنا ؟! ·

اقترب منى العمدة يسبقه كرشه الضخم :

ــ لتكن ما تكون ·· فهذا ليس مبررا لحرق أشياء الآخرين ·

ــ أنا أحب اليهم منك ·

ــ لكنك لم تعرفهم يا هذا ·

ــ أنا أكثر معرفة بهم منك ·

ــ لا تراوغ ·

ــ أنا صريح جدا ·

ــ ما دمت لم تعرفهم فماذا تقول يا سيد ؟!

ــ كيف ؟! ·· بل أعرفك أنت الآخر يا حضرة ــ حق المعرفة ــ ·

ــ غريبة ! ·· لم يسبق أن رأيتك ؟!

ــ ولكننى رأيتك أكثر من مرة ·

بعد هذه المحاورة المتوترة تقدم نحوى بعض الشبان يستسمحون الرجل فى قصف رقبتى الشامخة .. اقتربت منهم بضع خطوات ، زمجروا فى صوت واحد ، وحينما ربت فوق أكتافهم انخفضت صدورهم النافرة ، وهدأت أنفاسهم الثائرة رويدا رويدا حتى تلاشى الغضب تماما ، ثرثرت طويلا عن الخير والشر والحق والفضيلة .. اكتشف العمدة قوة شخصيتى ، ومدى سحر كلماتى المتسرب داخل حناياهم .. بسرعة تكلم ، لفنا الصمت ، وسرعان ما اقترب منى ، جذب ذراعى الأيمن بقوة وقسوة :

ـ كفى فلسفة ، وكلاما فارغا .. القانون وحده سيكون الحاكم العادل بيننا وبينك .

لم تعجبنى كلماته المتغطرسة ، احترق داخلى ، نفثت فى وجهه دخان سيجارتى ، « لطشنى » كفا فتهدل شاربى .. ازداد داخلى احتراقا .. دمعت الجروح فى قلبى .. صرخت بقوة وفى حزم :

ـ القانون ، وسأحترمه فلا تمد يدك ، والا قطعتها . قال بنبرة المنتصر ، والمنهزم فى آن معا :

ـ ما دام الأمر كذلك فخذه الى المركز يا خفير .

تحـولت الى « المركز » في البنـدر يلازمني كظلي الخفير ذو العضلات الفولاذية والجسد القوى الضخم ، فى المركز تمت ادانتى بشـهادة شـهود العيان ، حكم على بالسجن ٠٠ وفى السجن صافحت عيناى وجوها كثيرة ثائرة ٠٠ تسرب الملل الى قاع نفسى بكامل ثقلـه ٠٠ ألصقت جبهتى بحديد النافذة الضيقة الملتهب تحت وقدة الشـمس ٠٠ مسـحت نظراتى القلقة الحائرة شرفات ونوافذ الحى المقابل ٠٠ سبحت فى بحار ذكرياتى وأيام مجدى السـالف ٠٠ حـديد النافذة الملعونة يلسـعنى بحرارته دون رحمة ٠٠ نظراتى الحائرة لا تزال تجوب كل الشرفات والنوافذ ٠٠ ها هى ذى فى الشرفة الصفراء ٠٠ وجدتها !؟ ٠٠ وجدتها !؟ وجدتها !؟ ٠٠ أنا أعظم من رشميدس ٠٠ آنا أعظم من أرشميدس ٠٠ هى ٠٠ هى ٠٠ هى ٠٠ نفس الملامح : الشعر الأسود الفاحم ، العينان السوداوان ، الوجه الخمرى الجميل ٠٠ نظراتها تخلعنى من عالمى الطينى ، العالم يأكل من طبق واحد ٠٠ ها هى ذى حبيبتى أيهـا البلهـاء ٠٠ ها هى ذى رفيقتى ورحلة العـذاب ٠٠ جبهتى تزداد التصـاقا بحديد النافذة المحكمة الاطار ٠٠ الحـديد يشـوينى

بحرارته الطاغية ٠٠ لم أبال ٠٠ أفرد ذراعى جاهدا٠ وأمد يدى راغبـا ٠٠ لـكن يدى ؟! ٠٠ يدى !! ٠٠ ماتزال قصيرة ! ٠٠ قصيرة ! ٠٠ قصـيرة ! ٠٠ أقصر مما كنت أتصور ٠

(يوليو ١٩٧٣)

حدث ..
فى حارة البطل

مشاهد غائمة :

●● رآه رمضان الكبابجى ، وهو يدفع عربته الخشبية الصغيرة فى مدخل بيته ، يزحف فى بطء بجوار الجدار ٠٠ أصفر الرأس ٠٠ طويلا ــ أطول من باع ــ فاغر الفم ٠٠ أخرسته المفاجأة ٠٠ بصق فى تقزز ٠٠ تاه عن نظره ٠ سرعان ما ظهر مرة ثانية ، يحوم فى عينيه الخبث والمخادعة ٠٠ نظر الرجل الى عقارب ساعته فوجدها تقارب الثلث بعد الثانية صباحا ٠٠ لفحت وجهه نسمة صيف ، قلب شفته السفلى فى ارهاق وتراخ ٠٠ أغلق باب الحجرة جيدا ٠٠ أشعل سيجارته الأخيرة ٠٠ وطى (الوناسة) ٠٠ وبهدوء تمدد فى طول أم صابر ، وصحيح النوم سلطان ٠

●● لمحه فتحى أفندى من فوق درابزين شرفته ، وهو يطالع رواية جديدة ، يدور حول عمود النور ٠٠ أزرق اللون ٠٠ مدبب الرأس ٠٠ طويلا ــ أطول من باعين ــ فى طرفة عين سحب عصاه ٠٠ جذب ابنـه من كم جلبابه ، وهو مازال مبهوتا من المفاجأة ، نزلا على السلم بسرعة الخيل ٠٠ لم يجد له أثرا ٠٠ دهش الرجل ٠٠ عض على نواجزه حينما تأكد من انفلات الفرصة ٠٠ ظل لحظات يضرب كفا بكف ٠٠ تجمع أهل الحارة ، تساءلوا ٠٠ تحدث ٠٠ صدقه البعض ، ولم يصـدقه البعض الآخر ٠٠ لامه أكثر من واحد ٠٠ أخيرا أخـذ ابنه ، وصعد متجاهلا ما حدث من تعليقات كانت فى غاية السخافة ٠

●● شـافه محمـد بهلـول المزارع بالاصـلاح الزراعى ، وهـو يزور أختـه أم بطه ٠٠ يسـير فوق الطوار ٠٠ كبير الرأس ، لامع الجسد ٠٠ طويلا ــ أطول من باع ونصف ــ غافله ٠٠ قذفه بحجر ، ولكنه اختفى قبل أن يصيبه ٠٠ وحينما عاد لبلدته ،، حكى لهم قصصا كثيرة عن رأسه وجسده ، وطوله وعرضه ، كما حذرهم من سمه القاتل ٠٠ وعندما صمت حملقوا فى وجوم كالبلهاء ٠٠ ثم وضع كل منهم فأسه تحت رأسه ، ونام

حينما استيقظوا فى الصباح الباكر كعادتهم سألهم الرجل عن كيفية المواجهة المحتومة ، فلم يستطع العثور على أية اجابة حاسمة ٠

●● شاهده عم حامد السباك من خلال نافذة حجرته الواطئة ، يحبو متسللا نحو أقفاص أبى رجب الفكهانى ، بحركة لا شعورية قذفه بما وقع تحت يده ٠٠ بعد أن غافله ٠٠ ولكنه استطاع الفرار دون أن يصيبه بأى أذى ٠٠ اشتعل الدم فى عروقه ، وظل لحظات مشدوها ٠٠ وحينما رأى عم حامد السباك أبا رجب الفكهانى فى حالة لا مبالاة ، حذره سوء العاقبة فى لهجة شبه آمرة ، يعرفها أولاد البلد ، وعندما لاحظ ألا جدوى من كلامه ، رفع طرف جلبابه حتى حاذى ركبتيه ، وانصرف الى حاله ٠

●● رآه عاصم بن حسين الطويل ، وهو يخب فى بدلته العسكرية مزهوا ، يتجه نحو عربات الباعة الجائلين القابعة على ناصية الحارة ٠٠ أراد أن ينتهز الفرصة فضربه بسن حذائه ضربة عشوائية ٠٠ دار عدة دورات حول نفسه حائرا ٠٠ تورمت قدماه ، ونشع العرق مختلطا بالدم من بين أصابعه ٠٠ تلفت مذهولا، وقلبه يدق دقات متلاحقة ٠٠ أحس الخزى يتسرب فى

أعماقه ·· نكس رأسه ·· ثم حملق فى اللاشىء ··
حاول جاهدا أن يتذكر ملامحه ، وانما كانت مخيلته
كقرش قديم متآكل ·· عرف مؤخرا أنه هرب ، وان
كان — فى الحقيقة — لا يدرى من الذى هرب من
الآخر ؟ ·

●● لمحه ياسر بن خيرى الحلاق ، من تحت شجرة
التوت عند مدخل الحارة ، وهو يذاكر دروسه استعدادا
لامتحان الغد · يدنو منه فى بطء قاتل ، يتقدم غير
مبال ·· ضخم الرأس والجسد ·· أصفر اللون ··
طويلا — أطول من باعين — اعترض طريقه ·· عرقل
سيره ·· لم يتقدم أحد لمساعدته ، وعلى الرغم من ذلك
ظل ابن الحلاق صامدا متحديا يتحكم فى حركته ، على
قدر ما استطاع كمراهق تغلبت عليه رومانسيته فى
تلك اللحظة بالذات ، وقد ظل الشاب حديث الحارة
لبضع أيام ·· ثم نسوه بعد ذلك تماما ·

●● رأته تريزا ، من فوق سطح بيتهم ، وهى
تسقى شجرة اللبلاب يصعد شجرة التوت رافعا رأسه
بين لحظة وأخرى ·· تمتمت بكلمات من الانجيل بقلب
واجف ·· رسمت علامة الصليب فى الهواء — أكثر من
مرة — دارت رأسها كحجر طاحونة ·· لكنها آثرت أن

تغمض عينيها ·· همت أن تصرخ ، لكنها تسمرت فى مكانها ، وتحجرت الصرخة فى الحلق البلورى الرقيق ·· لم تستطع أن تعلل لنفسها ما حدث ·· حينما فتحت عينيها شاهدت ذيله الطويل ينسحب داخل جذع الشجرة المعطوب بسرعة بارقة ·

●● شاهده الشيخ محمد ، وهو فى طريقه الى المسجد لصلاة الجمعة ·· يهاجم بعض الأطفال ·· طويلا ــ أطول من باعين ــ أصفر العين والجسد ·· مطبوعة فوق رأسه علامة غامضة ·· قطب الرجل وجهه ·· حوقل وبسمل ، واستعاذ بالله ·· قرأ آية الكرسى ــ أكثر من مرة ــ ، ظل بدنه مقشعرا بضع لحظات ، ولكنه استعان على الثبات بأدعيته المحفوظة ، وعلى الرغم من أن المشاهدة جاءت صدفة الا انها هزت المقاييس فى رأس الرجل ·· حذر الناس من سمة القاتل ، ودعا لمقاومته ، كما حمل الجميع مسئولية التهاون فى حق هذا الجهاد المقدس ، واختتم خطبته قائلا : « ان الساكت على الشر كفاعله » ·

وبرغم كلمات شيخنا النارية ابتلع الناس بحر من السكون ، ولم يدر أحد : هل كان ذلك السكون توقيرا

لبيت الله ، أم كان تجاهلا جديدا للخطر المطارد .

ملاحظة جانبية :

أصبح أهل الحارة كبارا وصغارا ، يراقبون تحركاته ، ويتسمعون أخباره ، وهم فى حالة ذعر دائم ، كما تسربت تحركاته المفاجئة الى بعض الحوارى المجاورة يصاحبها الكثير من الخوف ، والعديد من التأويلات .

الضرب بالكلمات فى أقوال متناثرة :

●● قال رمضان الكبابجى : « الدخان يعكر الجو » عندما هاجمه وهو يمارس العملية الجنسية حتى لم يتمكن الرجل من رفع سرواله .

« ترك أحد المستأجرين شقته ، و .. »

●● قال فتحى أفندى : «الوحل يحاصر الشمس» وهو يلقى بحطام زيره القناوى من النافذة بعد ماتمطى فيه ، وكسره .

« ترك مستأجر آخر حجرته الواسعة ، و .. »

●● قالت أم بطة : « الحصان الأخضر يموت على الأسفلت » وهى تغرس حد السكين فى بطن البطيخة خشية منه .

« ترك مستأجر ثالث شقته ، و ٠٠ »

●● قال أبو رجب الفكهانى : « رياح الخماسين تؤذى الثمار » وهو يمتص مكان اللدغة المفاجئة ٠

« ترك مستأجر رابع حجرته البحرية ، و ٠٠ »

●● قال عم حسين الطويل لخيرى الحلاق « الفحيح يكتم الأنفاس » عندما طارده عند شجرة التوت ٠

« ترك مستأجر خامس مسكنه المريح ، و ٠٠ »

●● قال ياسر بن خيرى الحلاق : « الديدان تأكل الأحياء » وهو يحدد لأبيه مكان اللدغة الجـديدة ، فى جو مشحون بالقلق والتوتر ٠

« ترك مستأجر سادس شقته الوسيعة ، و ٠٠ »

●● قالت تريزا « المسيح يصلب من جديد » وهى ترسم لأمها دائرة حول الجزء المسمم من علبـة المسـلى الجديدة ٠

« ترك مستأجر سابع مسكنه الجميل ، و ٠٠ »

●● قال الشيخ محمد : «الساعة تأتى قبل الأوان» وهو ينزعه من فوق عنق زوجته العجوز ٠

« ترك مستأجر ثامن شقته ، و ٠٠ » ٠

طبلة :

« العدوى تنتشر ؟! ٠٠ الحكاية طالت ٠٠ متى نفيق ؟! ٠٠ » تساؤلات احتلت بؤر مشاعرهم ٠٠ خرج الجميع من الصلاة دون أن يتموها ٠٠ الأفكار تتضارب ٠٠ تغيم الرؤى ٠٠ قطع عم حسين الطويل حبل خواطرهم الشاردة بصوته الجهورى متسائلا :

ــ « هل لا يوجد فى «حارة البطل » ، بطل بحق وحقيق يخلصا ؟! ثم أردف : « آه ٠٠ بطل واحد ، يملك شجاعة الضربة الأولى ، ويخلصنا » ٠

حدثت تعليقات كثيرة حول صيحة حسين الطويل ، وتساؤله الجارح ٠٠ ثم انصرف الجميع واحدا اثر الآخر ٠٠ وعلى باب الحارة انشغلت أفكارهم بشىء آخر تماما ٠٠ كيف نعد الغداء لنا ولأولادنا ؟! ٠

النهاية :

فى الصباح الباكر تجمع صبيان الحارة تحت لوحة « حارة البطل » ورفعوا أقواهم ، وسرعان ما أخذ يمحو لفظة « البطل » ٠٠ وترك مكانها خاليا ٠٠ فارغا ٠٠!

(يونيو ١٩٧٣)

موسى الغريب

موسى الغريب

تبـدأ بلدتنا بمقـابر الشيخ علوانى ، وتنتهى بسراية الخواجة سمعان القابعة بشارع الأقباط ، يحدها شمالا المصرف الصغير ، ويحرسها من الجنوب عرق كبير من نهر النيل ، يشطرها نصفين شارع سوق الخميس ، وبقية شوارعها ملتوية على شكل حركات الثعـابين . تخرج منها حوارى وأزقة وزرائب خلفية كثيرة ، البلدة خليط من الدور الطينية وأكواخ الغاب والبوص التى تلتف حول نفسها فى تناقض غريب ، أغنى أعيانهـا لا يملك أكثر من عشرين فدانا ، ناسها أغلبهم فلاحون، يعيش بينهم الصانع والتاجر والفقير فى ترابط حميم، أولادها تمتد جـذورهم الى سـابع أرض ، نبتوا بين جـدران قاعاتهـا فوق قباب الأفران ، أو على التراب والحصى تحت ظلال الأشجار .

رجل واحد ـ فقير ـ جاء الى بلدتنا من زمن غير معلوم على وجه التحديد ، فى يـوم سوق ، يحمل فوق كتفه « خرجا » مرتقا ، باع للناس صناديق المعسل ، وعلب السجاير والكبريت ، وبذور البصل والطماطم والفجل والجرجير حتى لوازم الخياطين ، فى ذلك اليوم ربح ربحا وفيرا ، أعجبه الحال ، وضغطت عليه الأطماع، فمكث فى بلدتنا ، يفترش أرض الجفر المجاورة لشارع السوق ، يشترى ويبيع ، ويعامل أهالى البلدة بكل أدب وذوق ٠

بعد عـدد من الشـهور بنى فى مكانه ـ دون أن يعترض أحد اشفاقا بالحال ـ كوخا صغيرا ، عرشـه الرجل بسـعف النخيل ، اتخذه كدكان بسيط ، وراح يشترى بضائعـه من البندر ، ويبيع ، يتجشم مشـقة السفر يوميا الى البندر البعيـد عن أولاد البلدة نظير ربح معقول ٠

مرت الأعوام بكثير مرها ، وقليل حلوها ، وهـو يصرف شئونه بحكمة ، واضعا فى الاعتبـار تقلبـات الأحوال ومفاجآت الأيام ، قبل آن يخطو يحسب بدقة الخطوات ، ويقيس مختلف الأبعاد ، بهـذا الحرص ، وبفضل ما اتصف به من صبر ومثابرة تنـامى رأس

ماله ، وانتعشت أحواله بعد عرق ومعاناة ، شارك أحد تجار الغلال الكبار فازدادت أحواله انتعاشـا ، وفرج الله عليه ·· ورويدا رويدا توثقت العلاقات بينه وبين رجال البلدة ، وضاق الكوخ عليه فبنى فى المكان نفسه ـ بدلا من الكوخ الوضيع ـ بالطوب الأحمر دارا واسعة جميلة ، تحتها دكان ببابين ·· وسرعان ما شمخت داره بين الدور ، تزوج أخت العمدة ، التى فاتها القطار ، وبعد أسبوع واحد كتبتله توكيلا بالتصرف فيما يخصها من عقـارات وأطيان ·· فترة صـعيبة عاشـاها فى كابوس التردد بين عيـادات الأطبـاء والمشـعوذين وجربا العديد من الوصفات البلدية حتى أنجبـا ولدا أسمياه «يوسف» اعزازا لاسم أبيه ـ رحمة الله عليه ـ وصار الرجل من الأعيان فى بلدتنا ، أصبح يرتدى جلبابا من الصوف ، يزين جبينه طربوش أنيق أيام الشتاء ، وأيام الصيف يلف جسده الفارع جلباب «سكروتة» ناصع البياض ، ويتطوح الطربوش فى يسراه حينما يسـير فى خيلاء ، عارى الرأس مثل أولاد البنادر والذوات ، العصـا المعقوفة لامعة فى يمنـاه تضرب وجه الأرض وتتناغم والخطوات ، حـذاؤه يلمع فى كل الأوقات ، أضحى يجـالس المتعلمين والمـلاك ، وأراد أن يزداد

التحاما بالناس ، يتداخل فى لحم النسيج ، ويمحو من قاموس البلدة لفظة « الغريب » ، مع أعيان البلدة ساهم - رغم بخله المعروف - فى عدد من المشروعات : السكة الجديدة ، مشروع توسيع السوق ، الوحدة الصحية ، المدرسة الابتدائية ، فى آحزانهم كان أول المواسين ، وبهجة شرف أفراحهم ، ونقط عرائسهم ، جامل الجميع ، تردد اسمه بين أهالى بلدتنا محاطا بهالة من الاحترام ، خاصة بعد أن وثق صلاته بالمأمور ووكيل النيابة ، والمشرف الزراعى ، ومفتش التموين ٠٠ والولد « يوسف » يصير شابا جميلا فى خيالات وأحلام الفتيات ، توسع الرجل ، وشارك أكثر من نصف الفلاحين مواشيهم حتى الأرانب والأغنام ، لكن اسمه ظل يجرى على كل لسان فى البلدة « موسى الغريب » ، اذا نطق واحد « موسى ٠٠ » وسكت أكمل الآخر بلا تردد : « موسى الغريب » ، تخرج « الغريب » من الأفواه ، ينتفض ، تلدغه كثعبان ، ولكنه يبتسم فى خبث ابتسامة غامضة ، ولا يبدى أى امتعاض ، فقد حرص أن يكون هاشا باشا للجميع ٠

ذات صباح انحنى « موسى الغريب » فتح الأقفال ، فرد وسطه بصعوبة ، ورفع باب الدكان فوقع بصره على

الولد رمضان بياع البيض ، خارجا من البلدة قاصدا البندر تتأرجح سلة البيض فى يمينه – على غير العادة – فقفزت الى مخيلته ذكرى أليمة بشعة ، راحت تناوشه فى الحاح ، وتدور فى نفسه دوران النار فى فرن مشتعل ، العام الماضى ، فى بكور يوم «شم النسيم» جرى ولدى « يوسف » ، وحيدى ، حبة قلبى ، يسابق فى نزق رفاق عمره الشبان ، وصل الشاطىء قبلهم جميعا ، ضحك عاليا ، وهو يتجرد من ملابسه وراء شجرة صفصاف تبعثرت جدائلها على وجه النهر النشوان ، فى لمحة آلقى بنفسه فى أحضان النهر ، تجاذبته الأعماق – أمام عينى – وقفت يومها جامدا كالتمثال ، فقدت القدرة على أى فعل ، أطاع حبة قلبى – رغما عنه – جبروت الأعماق ، فغطس ، وقب ، وراح يغطس ، ويقب ، وبين لحظة وأخرى يرفع ذراعيه ، يستنجد ، يستغيث ، فى لمح البصر قذف الولد رمضان بنفسه فى قلب النهر فهو يعرف السباحة ، عليم بفنون العوم ، أراد – فى الظاهر والله أعلم بالباطن – أن ينقذ ولدى بأى شكل ، وفى أسرع وقت ، ولكن «يوسف» قد شل عقله الذعر ، ارتبك ، تخبط ، من حلاوة الروح تشبث به شده للغريق ، أوشك أن يغرقه معه ، بحركة

خاطفه ضربه الكلب بياع البيض بقوة فوق أنفه بقبضة يده ، تركه ، ونجا بشكل لم يصدقه عقل ٠

استنكر البعض على رمضان سلوكه ، واتهموه بالأنانية والقتل والكفر ، بينما وصفه البعض الآخر بالشهامة والرجولة وسرعة البديهة ، لم يفلح كل الرجال والشباب فى انقاذ يوسف الذى ضاع أمامهم فى غمضة عين ، ولم يخرج الا فى الليل حينما نصب الغطاسون شباكهم الكبيرة ، ودق الطبالون الطبول ، وقرع الأولاد والبنات بالأيدى والعصى آنية النحاس وعلب الصفيح ليفزعوا الجنية التى أمسكت بيوسف ، وهبطت قاع النهر ٠

خرج ليلتها على أنوار الفوانيس و « الكولبات » ، التى راقصت الأشباح والظلال ، منتفخا ، وجهه أزرق، وعيناه واسعتان جاحظتان ، عظمة أنفه مكسورة ويتساقط من فتحتيه دم أسود غليظ ، وتعلو وجهه ابتسامة استسلام امتزجت بالقهر ، تحرك الرجال بجثمانه بضع خطوات فوق ظهر النهر ، وقد دفق الماء من حلقه ، ثم وضعوه ، وغطوه بملابسه وبعض القش ريثما تصرح النيابة بالدفن ٠

حينما رفع موسى الغريب بصره وجد الولد رمضان

قد ابتعد دون أن ينتظر رد الصباح ، الذى رماه عليه، ضغط الرجل بشدة على ضروسه ، ضرب بقبضته رخامة « البنك » ــ أكثر من مرة ــ دفع كفتى الميزان بظهــر يده دون قصــد فانقلبت الموازين بكل أحجامها رغما عنه ، وتبعثرت على الأرض وفى رأسه ، وسدت المرارة حلقه ، ولما هدأ قليلا طوى جرحه بين جوانحه ، قال فى سره : « بلد كلاب ، ليس لهــا عــزيز » تذكر أكابر البلدة الراحلين : العمدة القديم ، شيخ البلد ، الحــاج بركات ، الشيخ فراج ، الخواجة سمعان ٠٠ ، فترحم على أيامهم ، وداخله شعور بالارتياح ، ولما افتكر بعض مضايقاتهم قال وكأنه يكلم نفسه : « ســامحهم الله ، لا تجوز عليهم الا الرحمة ، تركوا البلد فى ايدى عيال لا يفهمون الأصول » ٠

بعد أيام قلائل ــ بالتحديد فى مساء اليوم السابق ليوم « شم النسيم » رأى موسى الغريب بعينى رأســه ــ وكالعادة ــ الأولاد والبنات ، وبعض الرجال والنساء، وهم يجوسون بين الشجيرات فى الحقول بحثا عن أمخاخ البصل الأخضر ، يخلع كل منهم بصلة يانعة ، يختارها، يغسلها جيدا بمياة النهر الجارية فتصير جذورها الرفيعة القصــيرة مثل الحليب ، ويحطهــا فى الســيالة فتقبع

وفتافيت العيش الناشف بالقاع ، ثم يتسلق الأولاد شجر صفصاف شعر البنت كقرود مدربة ، يقطعون بعض الأغصان ، وهى بطبيعتها طويلة لينة ، يصنعون منها أطواقا جميلة ، محكمة الاستدارة ، يحشون بالمناجل بعض سيقان القمح بسنبلاتها اللبنية ، ويتفنن الرجال محاولين اظهار مهاراتهم أمام الأولاد فى هذا اليوم ، يتناول الرجل فى خفة عودين من عيدان القمح ، يضع بسرعة أحدهما فى فمه بين أسنانه ، والآخر فى لمح البرق يضعه فى قمة الشريط ليأخذ مكانه فى النسيج ، وتمتد يده بلهفة تلتقط العود من بين أسنانه ليحتل مكانه فى أقل من ثانية بصلب الشريط ، ويستمر الرجل هكذا بلا ملل دونما تستطيع تركيز نظرك على يديه المتحركتين بسرعة ودربة ، يجدلون من تلك العيدان الناعمة الرقيقة عرائس وشبابيك فى تشكيلات بديعة متنوعة •

راح موسى الغريب يرقب ما يحدث أمامه ، وهو شبه مذهول ، يفور الدم فى يافوخه ، ينهش الغيظ أعصابه ، تتردد أنفاسه حارة لاهثة ، يضع يده على قلبه ، وتتقلص ملامح وجهه ، ينزف من الداخل ، يحترق فى صمت ، رماهم بنظرات مستنكرة ، تجاهلوا

النظرات ، لم يحسوا به أو يقدروا مشاعره ، راحوا يواصلون — فى شبه عناد — طقوسهم — شبه المقدسة — التى توارثتها الأجيال من آلاف السنين ، استطاع بصعوبة السيطرة على أعصابه ، أخفى فى صدره أحزانه ، وتوارى عن العيون ، عاقدا العزم — بينه وبين نفسه — على أمر لم يخطر لأحد على بال ، ولم يكن أبدا فى الحسبان .

عندما عانق قرص الشمس الأحمر منتهى الأفق الشاحب ، وانطلقت أسراب الطيور عائدة الى أعشاشها ، سحب كل فلاح ماشيته ، وتوجه نحو البلدة ، يحمل تحت ابطه طوقا جميلا من أغصان الصفصاف ، أو عروسة لامعة أنيقة من سيقان القمح ، وقد تدلت السنبلات كحلقان جميلة راقصة ، يمتلأ الطريق بخليط من الأدميين والحيوانات والنباتات ، يعودون يصعد بهم الطريق ، ويهبط بفعل آكوام السباخ أو التراب الناعسة أمام الغيطان بلا نظام ، وطوال الطريق يتبادل الشباب النكات المكشوفة فتتغامز البنات ، وتنفر صدورهن ، يسرى الخدر فى عروقهن ، تلتقى العيون المتفاهمة فى صمت ناطق ، ويتضاحك الجميع فيسود جو من المرح ، وحينما تقترب البلدة تصافح الأنوف

أدخنة الكوانين ، تفوح فى الخياشيم ، روائح الطبيخ فتهتاج الأمعاء ، ويجرى الريق فى الحلوق .

عندما يصلون دورهم تقبل رؤوسهم ذوائب الحطب المرصوص فى حزم متساوية على واجهات الدور ينحنون فيرون دورا طينية عوراء ، تنظر لهم – دائما – بعين واحدة ، وسرعان ما تبتلعهم الأبواب الواطئة فى قليل من الضجة ، يربطون البهائم يستوثقون من غلق الأبواب بعد لحظات يخطف الرجال والشباب جلاليبهم النظيفة من فوق الحبال فى زوايا القاعات الرطبة ، أو من فوق الأوتاد والمسامير الصدئة المرشوقة فى حيطان وسط الدار ، يحط كل منهم مداسه تحت ابطه ، وينطلق بسرعة نحو المسجد الجامع ، يلحق بهم الأولاد فى خطوات جادة مقلدين الكبار ، يحتضنهم الجامع ، يضمهم جميعا فى قلبه ، تهدأ نفوسهم ، تسمو أرواحهم ، تنفرج أسارير وجوههم ، يتبادلون الكلمات فى همس خاشع ، يتحاورون بالبسمات ، تشع اشراقات فوق الجباه ، تغتسل الأعماق بالضوء ، يصطف الجميع بساحة المسجد فى صمت مهيب ، يصلون صلاة المغرب ، ثم العشاء ، بينما موسى الغريب قد ترك زوجته بدارها وحيدة ، تدلك مفاصلها بزيت الكافور وبعض دهانات

أملا أن تخف آلام الروماتزم ، وتتركها تنام ليلة دون أن تحس بالمنشار ، وهو ينشر العظام ، وراح يجول بطرقات البلدة مصدع الرأس ، مشتت الذهن ، تهتز السيجارة بين اصبعيه ، وتضرب عصاه وجه الأرض فى نشاذ ، زاما بين حاجبيه ، يتلفت فى كل اتجاه ، والناس تنظر اليه فى استغراب ٠

بعد الصلاة الكل يسعى ، يتفرق، الرجال يرجعون الدور ، وينهمكون فى تعليق أطـواق الصـفصاف ، وعرائس ، وشبابيك القمح على الأبواب ، وقد توسط كل طوق سمكة محنطة ، وبضع بصلات ، وفردة قديمة من حذاء صغير ، بجوار حدوة حصـان ، بينما اعتـاد الشباب والأولاد التسكع عند زكى بيـاع « البوظا » الذى أراح برميله الخشبى الداكن فوق أرض الشارع بجانب الحائط ، غطاه بلوح خشب أبيض ناصع ، وفوق اللوح فرد قطعـة نظيفة من « الدبلان » رص عليهـا مجموعة من الأكواب مختلفة الأحجام، وعلى يمينه قبعت زجاجات « العرقى » ، أو منقوع البراطيش كما كان يحلو لنا تسمية هذه النوعية من الخمور الرديئة ، وعلى يساره يرقد دلو مملوء بالمياة ، يعلو رأسه « كولب » مضاء ، ثبته بمسمار فى عظم الجـدار ، وبين لحظـة

وأخرى يضرب وجه البرميل بقاعدة كوز كبير فى يده يصب به للزبون ، ويقول بصوته المشروخ : « البوظا القطشة » ، يتحلق حوله الشباب والأولاد يتفرجون على مشاحنات الزبائن ، أو يضحكون على حركات السكارى، وهم يتخبطون بين الحيطان ، يظهر فجأة موسى الغريب، يتقدم ، وبكلتا يديه يزيح فى صمت الشباب والأولاد من حول البرميل ، وهو يتفرس فى وجوههم ، ثم قال بصوت تعمد أن يسمعه الجميع : « زكى » أين يوسف؟ • يصمت زكى لحظة ، ينظر فى عينى الرجل فيجدهما حمراوين كعينى عفريت ، تتسع حدقتاه ، يكرر الرجل السؤال بشكل حاد : « زكى قلت لك ، أين ولدى يوسف ؟ » رد زكى ، وهو يدارى مشروع ابتسامة ماكرة بكم جلبابه الوسيع : « يوسف راح البندر يا عم موسى ، وحالاسيجى • » ، يبتسم موسى الغريب نصف ابتسامة غامضة ، يضرب جنب البرميل الرابض بعصاه ، ويتناثر رذاذ بصاقه على الواقفين ، ثم يمضى تاركا الدهشة تملأ الوجوه •

يتلكأ جماعة من الشباب والصبيان عند زكريا بياع القصب ، يشاهدون المراهنات بين الشبان على تقطيع أكبر عدد من العيدان بضربة يد واحدة ، يفرد

الشاب يده مثل السيف ، وتتقلص عقل أصابعه ، يميل بجذعه للوراء ، يقطب بين حاجبيه ، يستجمع كل عزمه ، ويهوى بيده على العيدان ، وعقب كل فوز تصدر الصيحات قوية خشنة تخدش الهدوء الوسنان ، وعلى غير توقع يظهر بينهم موسى الغريب ، يحملق فى وجوههم فى صمت مريب ، يرى يد « يوسف ، ولده تنزل مرة على العيدان تجزها كسيف بتار ، ومرة يراها تنزل على رقبة الكلب بياع البيض فتقصفها فى طرفة عين ، يتخلى عنه وقاره ، يهلل ويصيح بحماس مثل الصغار ، ولما تركزت عليه النظرات ، وتساءلت العيون ، قلب شفته السفلى ، بقرف فى ارهاق ، نفض طرف جلبابه بضربات خفيفة من عصاه ، ومضى ينز جسده عرقا من كل المسام ، فى الوقت ذاته راح الأطفال يلعبون الاستغماية ، ونطة الانجليز ، وغيرهما من الألعاب الجماعية فى الأجران ، وتحت أنوار « الكولبات » أو الآشعة المتسربة من خلل النوافذ الساهرة ، وعلى مقربة منهم وقف فتحى بياع العجوة بجوار عربته الخشبية المتآكلة ، واضعا يده اليمنى على أذنه ، ينادى على بضاعته بصوت نصف نعسان ، والمساء الريفى من حول الجميع ، قد تمدد فى قيعان الحارات والأزقة ، وعلى ظهور المساطب المفروشة بأشكال هندسية متباينة من

ضوء القمر السهران ، ولكنهم ــ جميعا ــ يحرصون أن يأووا الى دورهم فى هذه الليلة ــ بالذات ــ مبكرين ، فالغد ليس يوما عاديا مكررا ككل الأيام ، « فمن تشرق عليه شمس الغد قبل أن يستيقظ مبكرا فسيلازمه الخمول والمرض طوال العام ، ولن يبارك الاله له فى رزقه أو عافيته • » هذا ما قالته الأسطورة، وأكده الأجداد والجدات للأولاد والبنات فى كل الأزمان •

فى جوف دور قميئة يتجمعن النساء والفتيات ، يثرثرن ، يتحركن فى نشاط ، يخبزن أرغفة طرية مشقوقة ، يصنعن الفطير ، يفسخن الفسيخ ، يفتحن بطون الأسماك المملحة ، ويقذفن بأحشائها قدام الدور من قبيل التباهى أمام الجيران ، ثم يغرقن الفسيخ والملوحة بمزيج من الزيت والخل والشطة ورذاذ الليمون ، ثم يشتركن والأولاد فى تلوين البيض المسلوق بالتفتة فتتباين ، وتتعدد الألوان ، تغمر الفرحة قلوب الأولاد والبنات ، ويتقافزون فرحين فى باحات الدور هنا وهناك ، تنشرح صدور الآباء والأمهات حينما يرون الفرحة تتماوج على وجوه العيال ، بعد لحظات تترنح رؤوس الصغار ، ويداعب النوم الأجفان فيسرع

الكبار ويمسكون بالأولاد والبنات ، يحشون بالششم عيون الأولاد ، ويشقون بسراود الكحل جفون البنات دون اهتمام بصرخاتهن أو استغاثاتهن ، ثم يضع كل واحد بصلته تحت رأسه ــ بالضبط ــ وسرعان مايروح الجميع ــ تحت تأثير التعب والارهاق ــ فى سبات عميق، فتهجع البلدة ، ويخيم فوق دورها سكون حريرى مريح .

ولما سكنت الأشياء فى قلب الليل ، وعبقت القاعات المظلمة الرطبة برائحة عرق الأجساد ، وروائح أخرى منتنة زخمة بات موسى الغريب ليلته أرقا ، يتقلب ، لم يسترح على جنب ، يخاصم النوم عينيــه ، ينظــر الى زوجته العجوز بغيظ مكتوم . وقد تكورت بجواره على الفراش فى لامبــالاة ، يحس آلاما ثعبانية تتلوى فى عروقه ، حنشا يمتص دماءه ، يكتم آهاته . يجز عــلى شفته السفلى فى صمت ، يســبل جفنيه ، ويعصف به الغيظ الى الجنون ، يسأل نفسه فى دهشة ألف سؤال وســؤال ، يتــذكر فى مرارة رحلة علاجه وعذابه من أجل الانجاب ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. » انفق المئات لدى الأطباء على مستوى المركز والمديرية والعاصمة ، أجرى وزوجته عشرات التحليلات تناول وزوجته كل أنواع المقويات والمنشــطات ، عملا بكل

الوصفات ، بدءا من تدليك العصعص بالثوم الطازج وتعاطى الفلفل الأسود والكرفس والجزر الأصفر والتفاح الأمريكانى وجوز الطيب حتى أكل اليمام والحمام ، أكثر من عملية حتى أنجبا « يوسف » بعدما ذاقا ألوان العذاب ، ثم يأخذه النهر ببساطة شديدة ؟! ٠٠ النهر الذى تعود العطاء يخطفه فى لحظات ! يموت ــ أمام عينى ــ ، وهو فى ريعان الشباب ، المسألة اذن ليست صدفة ، ان أرض هؤلاء الناس ترفض امتداد جذورى، أرض هؤلاء الأوغاد تأبى أن يمتد فى رحمها جذر واحد لغريب ولو فعل الغريب المستحيل ، ما أصعب أن ينفرط من حزمة القلوب قلب ، ويظل مطرحه خاليا بين أحبابه وناسه ، أدارت الزوجة ظهرها له فترجرج ردفاها المترهلان ، تتثاءب ، تحاول النوم فتهاجمها آلام الروماتزم من تحت طيات ثيابها الثقال ، تدير وجهها اليه ، تطل فى عينيه فتجد أكثر من علامة استفهام ، تسأل عشرات الأسئلة فى صمت كئيب ٠

يتأمل الرجل تقاطيع وجهها فتحتل مخيلته ملامح ولده : شاب قوى جميل ، رجل يعرف حقا معنى الرجولة، مواقفه والآخرين تقول خيره على الجميع ، الولد كان شخصية بمعنى الكلمة ، آه ٠٠ منذ طفولته والله ، وأنا

حاسس انه ابن موت ، يقبض بذاكرته على ملامحه ، دقائق وجهه المليح ، ويغمض عينيه ، يروح فى غيبوبة أليمة لذيذة ، ويسرح للبعيد ، يفيق متمتما : « الولد الذى كان سيفتح دارى من بعدى ضاع ، راح كشربة ماء ، وهأنذا أعيش وحيدا وزوجتى فى دار واسعة ، يهدنى الحزن ، وتطاردنى الآلام ، وحتما سيأتى يـوم تغلق فيه الدار ، وتعشش فيها العنـاكب ، وستقسم أرضى ودارى ـ أيام عمرى وحبات عرقى ـ بين الأغراب بالقيراط ، ويذوب ذكرى فى بحر النسيان ·· مأساة لا يحسها هؤلاء الأجلاف، لقد تبلدت مشاعرهم، وراحوا يمارسون مهاتراتهم السخيفة ، فى مسـاء الذكـرى السنوية الأولى لوفاة ابنى حبيبى ـ أمام عينى ـ فيما يشبه العناد ، ودون مراعاة لأية اعتبـارات ، طـرح التساؤل نفسه فتساءل متعجبا وبحسرة : « هل مثـل يوسف ينسى بهذه السرعة ؟!·· ماذا حدث للناس ؟! » وتستمر تناوشه التساؤلات كذبذبات محبوسة فى شريان مذبوح ·· مع أول صـيحة لأول ديك نهض ، مد يده رفع شريط « الوناسة » ملأ الضوء القاعة ، أخذها من على المسمار ، خرج الى وسط الدار ، سـحب علبة من الكوة المتربة ، نفض التراب من فوقها ، فتح العلبـة

بكل حرص وحنان ، أسند ظهره للجدار ، وعلى ضـوء
« الوناسة » الخـافت المضطرب انتزع ورقة بفرة من
الدفتر أخذ من العلبة المعدنية مسكة اصبعى دخان ، أنام
الورقة عـلى السـبابتين ، وبالابهـامين برم الورقة ،
وبطرف لسانه بلل حافتها فاستوت فى يده سيجارة ،
تعلقت بين شفتيه ، ثم أخـرج من جيبـه كيس قماش
صغيرا ، تناول منه قطعة حديد وقطعة سن مشـطوفة ،
وعقلة بوص يبرز منها فتيل من القطن ، قرب يده من
فمه ، وضرب الحديدة عـلى الصخرة فتطايرت بضـع
شرارات فاشتعل فتيـل القطن ، أخـذ نفسـا عميقا
فاشتعلت السيجارة ، زم شفتيه الغليظتين تاركا ثقبـا
صغيرا طرد منه الدخان فتماوجت حلقاته فى الهواء ،
توكأ على العصا ، وبص على بهائمه فوجدها نائمة كلها ،
وقد وقف الولد بياع البيض على عتبة الزريبة ضاغطا
بكلتا قدميه فوق رأس كلبه « سبع الليل » ماسكا بيده
سكينا كبيرا ، فنزل موسى الغريب على رأسه بالعصـا
حتى فارق الحياة ، أو هكذا تصور ، بعدها بلحظات ،
وبهدوء شـديد أحضر الفرقلة ، وأطال ذيلها وبرمه
جيدا ، ربطها فى احكام فى تكة سرواله ، لفها حـول

وسطه ، وخرج مسرعا تاركا زوجته ، وقد سرقها نوم مفاجىء .

مع أذان الفجر تصحو الامهات ، يحلبن ، يخرجن من قيعان الحارات والأزقة والشوارع والباحات الى النهر زرافات ، وقد سبقهن ـ سرا وفي تكتم شديد ـ بعض الشباب ، يختبئون أعالى الفروع بين ذؤابات الشجر ، أو خلف قواديس السواقى القريبة من الشط ، يتفرجون خلسة على الأجســاد ، وربما يمارس أحـدهم الفعــل متأثرا بما ينعكس على بؤبؤى عينيه ، تقف النساء ، تمتطى احداهن ظهر النهر ، ثم تقذف ببصلتها الأمواج فتتسع الدوائر وتضيق على وجه المياه ، تخلع ثيابهـا الثقال ، ويتبدى جسدها فى لون جذور السمار ، الذى يصنع منه الحصير ، تحتضن الماء الدافق برقة وحنان ، تغطس ، تستحم ، ثم تلبس الأحمر والأصفر والاخضر، وتنتعل القبقاب ، تحط فى عينيها الكحــل ، تنظــر وجهها فى المرآة ، تملأ الجرة ، تغطى فوهتها بالحلبــة الخضراء ، تجمل رأسها بأغصان الصفصــاف فتصــير عروسا ، تضع الجرة فوقها رأسها مائلة فى دلال ، ثم تخطو برشاقة على الطريق ، تضرب بذراعيها الطليقتين

نسمات الصباح البكر ، تعود وصاحياتها نشيطة جميلة تزغلل العيون .

وحينما يتسرب النهار طفلا يفرك عينيه محاولا التملص من قبضة الليل العجوز ، تغرد البلابل ، تشقشق العصافير ، وتتبدى الدوائر المرسومة بالندى حول جذوع أشجار التوت والسنط والجميز ، يوقظ الآباء الأبناء ، يصحون ، ورموشهم معجونة بالشثم والعماس ، يفركون عيونهم ، وهم يشرئبون بأعناقهم مستطلعين ، بسرعة يسحب كل واحد بصلته من تحت رأسه ، وينطلق راكضا نحو النهر مثل الحصان يرمى ببصلته وجه النهر الصبوح ، فتعلو رؤوس البصل ، وتهبط والأمواج ، ينزع عن جسده أسماله ، يلتحم والأمواج ، يغطس، يستحم، يحك جسده بالطمى، ثم بصابون « الفنيك » الرخيص ، ويغمر الجسد بالماء الدفاق ، لحظات، ويخرج بعضهم مرتدين أجمل ما لديهم من الثياب ، بينما يظل بعضهم يلعب ، يسبح ، ويعاود الاستحمام مرات ومرات ، الأولاد الذين يخرجون لاهثين ناحية جنينة الخواجة سمعان ، يغافلون الحارس، ويسرق كل واحد وردة ، ثم يقطعون المسافة من الجنينة الى البلدة يتقافزون ويمزحون فى شقاوة بريئة ،

يحـاول كل واحـد خطف وردة صاحبه ويطؤها تحت قدميه الحافيتين ، فتملأ الوردة الموطوءة الجو بأريجها الفـواح ، وتمـوت فى الحـال ، ويتضـاحك الأولاد ويكركرون بضحكاتهم فى صفاء ٠

تسـتقبلهم شـوارع وحارات البلدة مكنوسـة ، ومرشوشة بالماء العاطر ، ورغاوى الصابون ، وأمام كل دار يتصاعد الدخان من ركوة محاطة بأقراص مصنوعة من روث البهائم المخلوط بالقش أو التبن ، وفى قلب الركوة ينام واقفا قدر الفـول المـدمس ٠٠ يتواثب الأولاد فى رشاقة وتنافس من فوق الركوات صائحين مهللين متضاحكين ٠

بعد لحظات قصار سمعت البلدة صـوت فرقعات ، تدوى ، تشرخ الهواء ، ورأوا موسى الغريب يتطوح ، ويطوح بيده فرقلة طويلة الذيل كالأفعـوان ، يميـل بجذعه للوراء ، بكل عزمه وصهد غيظه يهوى بفرقلته على ظهور الأولاد والشـباب والـرجال ، وهم يجرون أمامه عراة ، ويجرى فى كل اتجاه ، أشعث الشـعر ، حافى القدمين ، عاريا كما ولدته أمه ، يتطاير الشرر من عينيه ، وتتناثر من فيه مئات اللعنات ، يملأ شدقيه بالبصاق ، ويبصق فى كل اتجـاه ٠٠ يقف الشـباب

والأولاد والأطفال ويقذفونه بالحجارة والطوب ، يتوقف لحظة وينظر ذائغ النظرات ، يسـقط عليـه وابل من الحجارة والطوب ، ويختل توازنه فيسقط على الأرض تصاب ركبتاه ، يجرح ذقنه ، ويمتلىء فمه بالتراب ، ينهض متعثرا ، يسير بضع خطوات مترنحا ، يركض على غير هدى ، وخلفه الأطفال والشباب ، ضـاقت عليـه السبل ، صار سمكة فى اناء ليس به الا القليل من الماء ، ولما اقترب منه الولد رمضان بياع البيض ، استجمع الرجل كل قواه وحقده ، ودفع به الى النهر ، ولـكن الولد رمضان كان أسرع منه فجذبه بحـركة خاطفـة معه ، وراحا ــ معا ــ يغطسان ويقبان ٠

(ديسمبر ١٩٨٤)

صفحة ..
من مذكرات كاتب استقبال

صفحة ..

من مذكرات كاتب استقبال

ـ افتح يا ولد .

فى لمح البصر كان باب الاستقبال مفتوحا .. مرقت نحو الداخل كسهم طائش .. جرى خلفها ادريس عامل الوابة لاهثا .. توقفت خلع ادريس سترته ، وبدأ يمسح السيارة رغم لمعانها المتوهج .. على الكرسى الخلفى كان جالسا .. رأيته يعدل طاقته فوق رأسه .. اضطجع للخلف بعدما نفض الغبار عن جلبابه الفلاحى .. تقيأ باب السيارة الأمامى الدكتور عزت البهى مدير قسم التجميل ، ونائب المدير العام . تقدم نحوى بخطوات واثقة . نظر نظرة عابرة على شباك التذاكر .. لاحظ قذارة حذائه ، آزال ما فوقه لاعنا شوارع شبرا ، والأيام السود التى حتمت عليه ارتيادها .. وقف أمام الشباك ، وضع يده اليسرى فى جيب بنطلونه مصطنعا العظمة .. قلت ـ بينى وبين نفسى ـ العظمة

لله وحده ٠٠ أشار لى بيده اليمنى ، تذكرت على الفور تمثال ابراهيم باشا القابع بميدان الأوبرا :

ــ افطع تذكرة يا ابنى ٠

وقفت ٠٠ نحيت الكرسى جانبا ٠٠ سألت :

ــ باسم من يا دكتور ؟ ٠

ــ بأى اسم خلصنا ٠

ضايقتنى غطرسته ٠٠ احترق داخلى ٠ جذبت نفسا طويلا من سيجارتى وقذفتها بعيدا ٠ سألته :

ــ مكان الحادث يا دكتور ؟ ٠

ابتسم ابتسامة صفراء ٠٠ قدم لى سيجارة رفضتها ٠٠ وضعها فى علبته ٠٠ أجاب :

ــ ليست حالة استقبال ٠٠ فلاح قريبى من البلد، حضر لأجرى له عملية فى القسم عندى ٠٠ وسأدخله عن طريق الاستقبال اختصارا للوقت ٠

ــ هنا قسم استقبال الحوادث يا دكتور !! ٠٠ لاسعاف الحالات الطارئة ، قسم التجميل مفتوح كل سبت وثلاثاء فى العيادة الخارجية ٠٠ وسيادتك ٠٠ قاطعني بشدة :

ـ فاهم .. فاهم .. أنا فى غنى عن محاضراتك !.
اقطع التذكرة يا ابنى وخلصنا .

ـ آسف يا دكتور . نحن فى قسم استقبال حوادث، والحالة المرافقة ليست حالة استقبال .. والمفروض ..
قاطعنى متسائلا فى دهشة :

ـ هل تعرف من يكلمك يا ولد ؟! .. هل تعرف من أنا يا كلب ؟! سبحت جيوش النمل على كل جسدى .. حافظت على توازنى :

ـ أعرف انك الدكتور عزت البهى مدير قسم التجميل ، ونائب المدير العام ، ولكن هذا لا يعطيك حقا فى خرق اللوائح ، والقوانين ، وارباك النظام فلتسر القاعدة على الجميع .. كلنا أولاد تسعة .

صعدت الدماء الى رأسه . اتسعت حدقتاه . زم بين حاجبيه .. ضرت بقبضته افريز الشباك .. ارتفع صوته :

ـ هل تسخر منى يا ولد ؟! . لا تكن غبيا . واقطع التذكرة .

ارتطمت كلماته بأذنى . اشتعل صدرى .. ارتعشت أطرافى .. ضربت بقبضتى فوق المكتب :

ـ اذا كان لابد من قطع التـذكرة ، أعطنى أمرا مكتبيا حتى لا أكون مسئولا عن هذا الهراء ٠

تنهد ٠٠ زفر ٠٠ اتسعت طاقتا أنفه :

ـ اقطع التذكرة يا ابنى ، وأنا المسئول ٠

نظرت اليه ٠٠ قطب بين حاجبيه ٠٠ قلت منهمكا ٠

ـ الموضـوع ليس كلاما فى كـلام ٠ أريد ورقة وخاتما وامضاء ٠٠ تحديد مسئولية يا دكتور ٠

ـ اقطع يا ولد التذكرة ، والا شردتك ٠

أغاظنى رده ٠٠ ضربت بقبضة يدى فوق المكتب وصوتى مخنوق بالبكاء :

ـ لن أقطع التذكرة ، ولو كلفنى ذلك رأسى ٠

فى تلك اللحظة رأيت قريبه الفلاح واقفا بجواره ٠٠ التف حوله الكثيرون ، الذين توافدوا الى الاستقبال ٠٠ حاول الجميع تهـدئته متلمسين شتى المعـاذير ٠٠ ركب رأسه ، وأصر اصرارا شديدا على أنه لن يتنازل عن موقفه ، ولن يترك مكانه الا اذا أخذ التذكرة ٠٠ طفق يتوعدنى ، والجمهور يستسمحه ، وكلما ازدادوا الحاحا ازداد هو اصرارا على موقفه ٠

شاهدت ما دار بمشاعر تتنازعها الشفقة والسخرية والغيظ فى آن معا ٠٠ حينما هدأت رفعت صـــوتى قائلا فى ثقة :

ـ اتركوه يفعل ما يريد ٠٠ أنا فى موقف سليم ٠٠ ولن أخشى شيئا طالما أعرف حدودى ، واتصرف من واقع النظام المعمول به فى الاستقبال ٠٠ سيظل لونى واحدا مع الجميع مهما كانت الظروف ٠

أراد أن يقول شيئا ٠ لم أعطه فرصة ، قاطعته ٠٠ مددت يدى ، زحزحته بعيدا عن الشباك :

ـ أرجــوك يا دكتــور ٠٠ كفى عطلة ٠٠ أمامى ناس تنزف أولى منك بهذا الوقت ٠

فى تلك اللحظة حضر المعاون ومساعده ، ومدير مكتب الأمن ، والنائب الادارى ٠٠ فهموا ما حدث من خلال بضع كلمات ٠٠ أطلوا فى وجهى ، وابتســموا ابتسامات باهتة ٠٠ حاول السيدالمعاون اقناعى بكلمات لا تخرج عن دائرة المجــاملة ، وعندما استرســل فى الحديث كدت أصاب بالغثيان ٠٠ قاطعته بنبرات جادة وحادة :

ـ يا عم عطبة لا داعى للمهاترات ٠

صمت ·· جذب الدكتور البهى من يده فى رفق ·· ربت فوق كتفه فى حنان زائف ·· وانصرفوا جميعا ·· سقطت الصخرة من فوق صدرى ·· تنفست الصعداء ·· جلست :

ــ اسم المصاب ؟ ·

ــ محمد مصطفى يوسف ·

ــ عمره ؟

ــ ٣٦ سنة ·

ــ عنوانه ؟

ــ ٧ حارة محمود حسنين خلف مخزن ترام شبرا ــ قسم الساحل ·

ــ الاسعاف ؟

ــ اسعاف ٤٧٥ فرع الساحل ·

ــ مكان الحادث ؟

ــ حادث سيارة أمام المعهد الفنى بشارع شبرا ــ قسم الساحل ·

ــ وقع بالاستلام ·

ــ تفضل ·

ـ غيره ٠

شق عم فتحى ساعى المدير العام الكتلة البشرية المتزاحمة أمام الشباك ، وصدره يعلو ويهبط ٠٠ بلع ريقه بصعوبة :

ـ أستاذ ٠٠ أستاذ ٠٠ المدير طلبك حالا ٠٠ قم ٠٠ تعال ٠

ـ لن أترك المـكتب يا عم فتحى ٠٠ التليفـون موجود ٠٠ يتصل ٠

رفع عم فتحى كتفيه مندهشا ٠٠ قال :

ـ ما على الرسول الا البلاغ ٠

ـ اسم المصاب يا كابتن ؟

ـ محمد عبد القادر دررديرى ٠

ـ عمره ؟

ـ ٢٦ سنة ٠

ـ عنوانه ؟

ـ ٢٢ حارة مكتب الحكر ـ حكر أبو دومة ـ قسم روض الفرج ٠

ـ نوع الاصابة ؟ ٠

ـ مصاب بضربة مطواة فى مشاجرة بالسكن ٠

– المرافق ؟

– محمد أحمد محمد .

– رقم البطاقة ؟

– بطاقة شخصية رقم ٣٩٩١٢ سجل مدنى روض الفرج .

– تفضل التذكرة .

– حجرة الدكتور يا أستاذ ؟

– ثانى حجرة بالجناح الأيسر فى المبنى المقابل .

ترن .. ترن .. ترن .

– من ؟

– مكتب المدير العام .. أريدك فورا .

– آسف يا دكتور .. آنا وحدى ومعرض لحضور أى حالة خطيرة .. لو جاء مصاب ومات ، وأنا عندك .. من المسئول ؟! .

– ماذا حـدث ؟! .. انت مجنـون ؟! .. أنت مجنون .. أغلق المكتب وتعال بسرعة .. أنا المسئول الأول والأخير هنا يا غبى .

استأذنت من الجماهير المتراصة أمام الشباك .. غضب البعض .. أما البعض الآخر فقد ثار ، وهددنى

بالشكوى الى المدير العام ٠٠ التفت لهم ٠٠ قلت بصوت عال سمعه الجميع :

ـ يا جماعة ٠٠ أنا ذاهب الى المدير العام ٠

اتجهت اليـــه زافـرا ٠٠ رأسى تلتهمهـا آلاف التساؤلات والخواطر ٠٠ لماذا طلبنى المدير العام ؟!٠٠ هل سيشد على يدى مهنئا ؟! ٠٠ هل دس عنده أحد ؟٠٠ هل قرر فصلى ؟! ٠٠ اننى فى الحقيقة أعمل بعقد مؤقت قابل للفصل فى أى وقت ٠٠ هل بعد المقـابلة ستبدأ جولة البحث عن عمل آخر ؟! ٠٠ مستحيل ٠٠ هل ٠٠ هل ٠٠ وهل ٠٠ لقد دارت رأسى كطاحونة خربة ٠٠ انتشلنى صوت عم فتحى من بين الأمواج هازئا ساخرا:

ـ كان من الأول أحسن يا أستاذ ٠

ـ اخرس يا كلب ٠

حاولت السكرتيرة الشابة تهدئتى ٠٠ فتحت ٠٠ دخلت ٠٠ أمام المكتب وقفت ٠٠ غاصت قدماى فى وبر السجادة ، كمـا غاصت رأسى فى ترتيب سـلسلة من الحجج تؤيد موقفى ، هؤلاء المتغطرسون يظنوننا كعمال لا نستطيع ادارة أى حوار معهم ٠٠ سأمحو هذه الفكرة من أدمغتهم والى الأبد ٠٠ بعدما نشع العرق تحت قدمى ٠

ركز الدكتور سالم منصور مدير عام المستشفى ، ورئيس مجلس الادارة نظراته الحادة فى عينى :

ــ من اللازم أن تعرف يا ابنى أنك عامل مؤقت ، وعقدك قابل للفسخ فى أى وقت ٠

ــ أعرف هذا يا دكتور !!

ــ ولماذا تختلق المشاكل ؟! ٠

ــ أبدا !! ٠

ــ أنت رفضت قطع تذكرة للدكتور البهى ٠

قلت فى نبرات واضحة ، وأنا أنظر اليه فى استغراب :

ــ أنا لا أتعامل مع الدكتور البهى بالذات ٠٠ أنا لا أقسم عملى أو تعاملى الى أبيض واسود ٠٠

قاطعنى بحدة :

ــ اقطع التذكرة يا ابنى بلا كلام فارغ ٠٠ واحنى رأسك حتى تمر العاصفة ٠

تزلزلت المقاييس فى رأسى ، وبعنف ٠٠ اشتعل جسدى كله ٠٠ ضربت بكلتا يدى فوق مكتبه ٠٠ صرخت :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ لا ٠

خرجت ٠٠ ألقيت نظرة على الطابور المتزاحم أمام مكتبي المغلق ٠٠ أزحت الناس برفق ، وفتحت ٠٠ دق جرس التليفون ٠

ـ من ؟!

ـ أنت مرفوت ٠

(ديسمبر ١٩٧٥)

البطل !!

البطل !!

فى نعومة الحرير تسلل اليه احساس مبهم ، سيطر عليه رغم الضجيج ، ونداءات الباعة ، ومشاجرات الركاب ، رفع يده اليمنى ـ بعد تردد ملحوظ ـ وتحسس الوسام فى سرعة بارقة بأصابع مرتجفة • زم بين حاجبيه • مسح المكان بعينين قلقتين ، ثم غاب عن الجميع • دوامة لا تهدأ قذفت برأسه هنا وهناك • عشرات المرات ركب هذا القطار ، وليست هذه المرة هى الوحيدة ، التى يعود فيها الى قريته بعد غياب طويل ! •• اذن ما سر هذا الكابوس ؟! •• ما الجديد الذى يعكر الصفو ؟! • سؤال بدا بسيطا ، لكنه فرض نفسه ، وتشعبت أطرافه • طرق به التفكير أبوابا شتى ، لم يصل الى سبب واضح • بحركة لا شعورية تحسس الوسام ـ أكثر من مرة فعل ذلك ـ وفى كل مرة

كان يتملكه زهو ما يلبث أن يزول تحت وطأة الصراع الدائر فى أعماقه . القطار يسرع الخطا ، تلامس عجلاته القضبان فتحدث ايقاعا رتيبا يذكره بلحظات الوداع المريرة .. يتلكأ عقله .. يشت فكره بلحظات التركيز فتفر منه الخيوط ، وتتمرد عليه ، يسرح للبعيد . يمد يده يتحسس الوسام فيقشعر بدنه ، تزدحم رأسه بالمعارك ، والرفاق ، والدشم ، والعطش والموت ، والدمار ، وسنوات الانتظار .. كاد رأسه ينفجر . يتشجع — على الرغم من جبنه — ويفتح خلايا مخه . ويعرى نفسه .. ثم يتجرأ ، وينظر ، فيتضاءل حجمه .. تتزلزل الأرض تحت قدميه . يتأمل ، فتتبدى الحقائق أمام عينيه مؤلمة بشعة .

عندما أذاعت الاذاعة موعد تسليم الأوسمة لأبطال العبور ، وعم الخبر القرية تجمع الناس حول « الراديوهات » وشاشات « التليفزيونات » . حتى الذين حتمت عليهم ظروفهم الذهاب الى الغيطان حملوا « الترانزستور » مع الأكل والشاى والمعسل . أهل القرية اعتقدوا لسبب غير معلوم ، أو بحاستهم الخاصة ، أن قريتهم ستكرم فى شخص « ابراهيم عوض الغنيمى » . الولد الذى خاض معارك أكتوبر ، وشارك

فى صنع المعجـزة ·· قال لهم طه الحسينى ــ زميـل دراسته بالكلية ــ انه تصدى لتشكيل كامل من دبابات العـدو ، واسـتطاع تـدمير عشر دبابات بمدفعـه الصاروخى ، ولم يصب الا اصابات طفيفة ، رغم قصف العدو المركز عليه ولولا ستر الله ، وقدرة ابراهيم على الحركة والمناورة لما نجا من هلاك شـديد حاق به ·· أيضا أكد لهم العمدة بعد أن أوهمهم بأنه ــ وحده ــ العالم ببواطن الأمور : أن ابراهيم بن عوض الغنيمى أحد الذين دمروا اللواء (١٩٠) الاسرائيلى فى رابع أيام المعركة ، حينما كمن ورفاقه فى خنادقهم ، واللواء المغرور يتقدم ومطلع الفجر ·· الحرب خدعة ·· لم يتعاملوا معه حتى صار بكامل عدته وعتاده فى مرمى النيران المؤثر وحينئذ فتحوا عليه أبواب الجحيم ·· لم تشرق شمس التاسـع من أكتـوبر الا ودبابات اللواء ومدرعاته حطام فى حطام ، استسلم قائد اللواء ، ومعه مئات من جنوده ، ولولا ستر الله ، وثقة ابراهيم فى نفسه لاستشهد فى تلك المواجهة ، وان كان قد أصيب ونقل الى المستشفى ، وخرج بعد أيام قلائل ·· عشرات القصص ·· عشرات الحـكايات اتفقت فى المعنى ، واختلفت فى التفاصيل، انتشرت فى القرية، وتناقلتها

الناس ، كانوا فى حيرة ، يريدون بفارغ الصبر قطع الشك باليقين ٠

حينما بدأ التليفزيون والاذاعة ينقلان وقائع الحفل على الهواء راح الجميع – فى شوق وترقب – يتابعون الأسماء ، القلوب تنبض بشدة ٠ الدقات فى القلوب تتلاحق فى سرعة غير عادية ٠٠ الاحساس المتوتر يوشك أن ينفجر ٠ الدماء تلهث فى الشرايين ، العيون مركزة على الشاشات ٠٠ الأذن تلتصق بالسماعات، كل الحواس صارت آذانا تلتقط الحروف قبل أن تنطقها الأجهزة ٠٠ يعلن المذيع : « جندى مؤهلات : ابراهيم عوض الغنيمى ، من أبطال بدر ، وسام الشجاعة العسكرية ٠ » فتنطلق تكبيرة مدوية تهز حيطان الدور الطينية ، تختلط الأصوات وتتمازج ، تتلاحق الجمل على ألسنة الرجال ٠٠ ترتفع الزغاريد تشق السماء ، تخرج العبارات من الأعماق ، يجرى فى أعماقها ماء الصدق الرقراق ٠

فى اليوم التالى يشق دروب القرية موزع التلغرافات وفى يده البرقية ، تمتد الأيدى ٠٠ تتخطفها يقول صوت آمر : « اقرأ البرقية يا بشمهندس ٠ يعقبه صوت أكثر حدة : « ناول البرقية للعمدة يا رمضان » يبسط

الهدوء جناحيه ، يسود المـكان صـمت متحفز ، لهثت الأنفـاس ، اشرأبت الأعنـاق ، قرأ قالت الكلمـات :
« أنا بخير ٠٠ سأحضر اليوم فى قطار الثالثة ٠ ابراهيم»
فى تلك اللحظة انطلق شباب القرية ، ورجالها نحـو المحطة كسهام مارقة ، فقد قرروا ـ بينهم وبين أنفسهم ـ حمل بطلهم « ابراهيم الغنيمى » على الأكتاف من المحطة حتى القرية ٠

احتكت العجلات بالقضبان ايذانا بتـوقف القطار ٠٠ أطل من النافذة ، لاح لعينيه رصيف المحطة ـ قبل الأخيرة مغسولا بماء المطر يلمع تحت أشعة الشمس ٠٠ تمتم : « ليت المطر ٠٠، ٠٠ » تكشف الجو بعـد رعد وبرق وقليل من العواصف ، وأوحى بجو صحو ٠٠ لمح من بعيد بعض المعارف يتزاحمون على الركوب بقففهم وسـلالهم ، أغلق النـافذة بهـدوء متوتر ، وركن الى العزلة لعله يصل الى قرار يريحه من عذابات ضـميره اللحوح ، سرعان ما تحرك القطار ليقطع المحطة الباقية بسرعة مذهلة ، لم تبق سوى دقائق ويصل ٠٠ القطار على وشك الوقوف ٠٠ تحسس الوسام فى بطء ، وتنهد بحرقة ٠٠ بدأت العجلات تحتك بالقضبان ، وتعطى اشـارة البـــدء فى النزول ، انتصب واقفا ، تحسس

الوسام بيد مهزوزة ·· وحينما لاح على باب العربة الأخيرة تخطفته الأيدى ، آذهلته المفاجأة ، أخرست لسانه ، هزت وجدانه ·· لم يقاوم ، ولم تكن هناك فرصة لذلك ، صار قشة ، وجرفها التيار ·· امتثل للارادة الأقوى ، ولم يقو على المعارضة · حملوه فعلا فوق الأكتاف ، وراحوا يهتفون فى حماس بالغ للبطل العائد ، بينما كان الأطفال يتمايلون وراءهم فى سرور واضح ، وفى آيديهم المرفوعة بتعانق سعف النخيل وفروع الصفصاف ·

فى ضجيج الموكب الصاخب نشطت ذاكرته، وراحت تستعيد ما حدث : الطائرات تمرق كسهم فى الاتجاه الشرقى ·· سلاح المهندسين يفرد الكبارى فوق القناة بسرعة فائقة تحت ستار من الدخان ·· تتقدم التشكيلات العسكرية بثقة ·· (مصر) قطرة دم تجرى فى كل العروق ، تلامس الشرايين فتتشبث الأيدى بالسلاح ، وتقبض عليه بقوة ، النظرات صارت شفاها تقبل الضفة الأخرى فى شوق وحنان ، الاصرار تعبير حاد انطبع على كل الوجوه ، الأرواح من فوق الأكف تطير كحمامات بيضاء ، الرجال يرصفون بالدم طريق الخلاص ، الخناجر تزأر ·· القوات تعبر ، أيام لا تنسى،

كل ثانية حفرت على الضلوع ، وحبات العيون ، المعابر تصب الجحيم على قوات العدو ، انطلق المارد يجتاح السدود ، يدك الحصون ٠٠ ذعر العدو ، أربكته المفاجأة ، شلت حركته ، من حلاوة الروح فتح نيرانه على موقعي فتصدت له أسلحة الرفاق بفدائية ، راح قلبي يرتجف ، تعالت دقاته ، وتلاحقت ضرباته ، سقطت روحي في قدمي ، في لمح البرق فررت الى داخل الدشمة كثعبان ٠٠ الانفجارات تدوى في صوت يصم الآذان ، ويرهق الوجدان ، آحفر بأظافري الآرض ، آغوص في جوف الرمل ، أصير جنينا في رحم الأرض ، أرفع رأسي ، أطل فأجد الموقع مفروشا بجثث الرفاق والصحاب ، عيونهم المفتوحة مسامير تنغرس في نني القلب ، في ثانية اخفض الرأس ، أغيب أطرافي في فتحات الأرض ، أغوص في بطن الرمل ، أتوارى ٠٠ يبدأ دم الرفاق والصحاب رحلته الساخنة في شقوق التراب ، يتحدر في قنوات صغيرة ، يتجه الى الدشمة ، ألعق الدم ، ينهمر الدمع ، يلفني الضباب والموات والقهر ، أفيق حينما يتوقف القصف ــ بضع لحظات ــ وأجد جسدي قد استحم بالدم ٠٠ أرواح الشهداء ترفرف في الجو فتكتوى النفس ٠ في قلب الدشمة مع

« الترانزستور » جاء صوت المذيع عقب أغنية وطنية عالية النبرات واثقا « نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السويس فى قطاعات عديدة ، واستولت على نقط العدو القوية بهـا ٠ ورفع علم مصر عـلى الضفة الشرقيـة للقناة » ٠ أخذت نفسى فى ارتياح ، بلعت ريقى عدة مرات ، قفزت من الدشـمة ، زحفت بين الأشـلاء ، اندفعت فى سرعة الى « مركز القيادة » شد القائد على يدى ، مسحت الدم من فوق جبهتى ، وابتسمت ٠٠ حقا كانت تلك الأيام الستة شـيئا غير عادى ، كل سـاعة صارت أشبه بيوم حشر ، كل خطوة كانت فوق حبل من نار ، كان « العبور » حجرا ضخما ألقى فى ماء راكد فاتسعت الموجات رويدا رويدا ، وحوت العالم ، اهتزت المقاييس فى رؤوس الساسة ، صححت المفاهيم ، عدلت الأوضاع ٠٠ ولكن وضعى – وحده – يظل شاذا ومختلا مع الواقع ٠٠ كل الواقع ٠٠ كيف أصير بطلا من داخل دشمة ؟! كيف ؟! ، كيف ؟! ٠ الموكب الصاخب يواصل سيره ، ولكن التساؤل المعاند لايزال يفرض نفسـه ، يتذكر الرفاق والصحاب ، الموقع ، الدشمة ، ومشاركته

لهم السـيجارة واللقمة والشربة فتقفز الحقيقة تطحن خـلايا عقله ، ينزلق في سرعة من فوق الأكتـاف ·· يسـقط ·· ينهض ·· يركض ، ويركض ·· وظل يركض حتى صار نقطة باهتة عند نهاية الأفق ·

(أغسطس ١٩٨٢)

الفكاك .. من الدائرة

(١)

رأيت السحب تحاصر الشمس فى عناد ، فتفرع اليأس بين جوانحى ، ونمت للفروع أوراق وأوراق ، تلاحمت الفروع ، وصار القلب مسرحا للعـذاب ٠٠ واحساس مر تخلل المسام ، لون نظرتى بالسواد ٠٠ راحت خطواتي الكسلى تلطم أسفلت الطريق فى تردد شـديد ٠٠ رأسي يدور ٠٠ ويدور ، أحس بالغثيـان فأتوقف ـ رغما عنى ـ عن المســير ٠٠ أقول لنفسى : ما وقع قد وقع ، ولا وقت للحساب ، أسقط على الأرض اللزجة فيتلقفنى كابوس عنيد ، والنـاس من حـولى تسير ، تواصـل السـير سراعا ، تدوس فوق عنقى ، تتقافز الأقدام ، وتركلنى بلا اهتمام ، هؤلاء الأوغاد يتدافعون ـ فى همجية ـ فيزداد الضغط فوق وجهى ،

تتكسر عظمة أنفى ، أتنفس التراب ، تتكرم الأقدام فتزيحنى جانبـا ٠٠ وتمضى ٠٠ أتكور فوق الطـوار كقط أجرب ٠٠ الآلام تنشب أنيابها فى كل أعضــاء جسدى ٠٠ فى اعياء شديد انهض ، أفرح فرحة طفل فلم أفقد حاسة شـمى ، أو يطير منى عقـلى ٠٠ أدور متحسسا مواضع كثيرة من جسدى ، أحمد الرب عـلى سلامة بصرى ٠٠ أنظر الى البعيد ، أرى الشمس تولى أمام فلول السحاب ، يضيق الأفق ، ويشتد نزيف جرحى ٠٠ أخطو خطوة أو خطوتين ، يعود رأسى للدوار ٠٠ من جديد رأسى يدور ٠٠ ويدور ،، والفكاك من الدائرة أمل لا يلوح بعد ٠٠ كيف لا تسعفنى ثقافتى فى فك طلاسم اللغز ؟! ٠٠ صديق عمرى رأيته بعينى رأسى يرشق السهم فى نن العين ، وعصفورتى ، روح القلب عنــد أقدامه مستكينة يامق منقارها القرمذى أظفاره فى ذل وحنان ٠

كانت ٠٠ كانت عصفورتى الحبيبة كل صباح تنقر زجاج نافذتى فى رقة ونعومة ، تزقزق بأغنيــة أمل جميلة ، تدب فى جسدى الحيــاة ، أصحو فأرى شـمس الصباح تغسل شوارع المدينة بالطهر والاشراق ، حتى فى عز برد الشتاء ، عصفورتى أطعمها حبــة القلب ،

أسقيها ماء الفؤاد ، أدور في المدينة أجمع من كل شارع حكاية ، ومن كل حارة ملحة ، أسامرها فى المساء أميرتى الرقيقة ، أسعد لسعادتها ، أفرح حينما تكركر ضحكاتها وتشرق كل الأشياء !٠٠ لعن الله الفقر ، وضعف الحول ٠٠ ضاع الحب ، وغرقت العصافير فى بحار الوحل ٠٠ آه ، ضاع كل شىء ، اهتزت المعايير فى الرأس، ما أتعس انسانك أيها العصر ، يلهث راكضا خلف اماله فيسقط مغشيا عليه ، يجاهد موفقا بين معطياتك المتناقضة فيجن ، يحاول صادقا متابعة ايقاعاتك اللاهثة فيصاب بالعجز وحينئذ تدوسه ، وتسير وانت لا تأبه بشىء ٠٠ والحقيقة ؟! ، الحقيقة فى هذا العصر سحابة حائرة تحلق فوق الرءوس المجهدة بلا معنى ، ومن يتجرأ ويشرب حليبها البكر ينهى حياته بكأس من السم ٠

(٢)

فى قاع المدينة ــ ومدينتى بلا قلب ــ فى هدأة الليل ، والليل ستور ، من بعيد أظل أدور ، وأحوم حول « البار » ، « بارى » المنشود من بعيد أبص الى أصدقاء « البار ، وكلى حنين ورغبة وشوق ، أنظر ٠ وأظل

أنظر ترتد نظراتى كسيرة تفتت عضد القلب ٠٠ آه ٠٠ لا يوجد أثقل من صديق خالى الوفاض بين أصدقائه مهما كان يملك من الظرف وخفة الظل ٠٠ دخان سجائرهم الرخيصة يضبب سقف « البار » القذر، الدخان يتصاعد ، وينثر حلقاته اللولبية على مدخل « البار » المتواضع ٠٠ أعرف ما يدور بدواخلهم تجاهى الآن ، انطباع كل منهم نحوى أو عنى، حقيقة مشاعرهم، كل ذلك أشياء لا تخفى على ٠٠ هم يحبون تواجدى معهم لخفة دمى وظرفى فى لحظات الأنس ، فبفضل نكاتى وقفشاتى تمضى لحظاتهم لامعة ، ومبهجة وان كان يحدث أحيانا ــ رغم لحظات المباسطة ــ نوع من التنافر مع البعض ، ولكن حينما يتورطون فى دفع حسابى يلعنوننى جميعا ــ سرا وعلانية ــ أنا وأيام الفقر ، التى جعلتهم يصادقون فقيرا مثلى تعسا مراوغا ٠

بعد مد وجزر ــ بينى وبين نفسى ــ وجدتنى أنهى صراعى ٠٠ استجمعت شجاعتى ، لعنت ترددى ، وبسرعة اندفعت كقذيفة ، وجلست ، فأشرقت بعض الوجوه العابسة ، وعبست بعض الوجوه الباسمة فى نوبة من الهرج والمرج والضحك ٠

(٣)

بعد ما تجرعت كأسا ، أو كأسين ، قال أفصحهم لسانا بعد أن بلع ريقه عدة مرات :

ـ غريب هو الأمر ، كل ليلة تأتى كضيف ثقيل بارد ، وسرعان ما تأسرنا بحديثك الحلو فتسكر وتعربد ، ثم تمضى دون أن تنفق مليما واحدا ، والمصيبة اننا لا نعرف من أين تأتى ، أو الى أين تمضى ؟! ٠

٠٠ غريبة ! ٠٠ آتى من حارتنا طبعا ٠٠ آه ٠٠ ولكن حارتنا يا أصدقائى لا اسم لها ، حتى سكانها بلا رءوس ، وحكاياتها لا تقل غرابة عن بيوتها الغريبة المتناقضة ٠٠ أحداثها لا تقل اثارة هى الأخرى عن حركات الحواة ٠

قال صديقى البدين بعد أن اضطجع للخلف ، وبحلقت عيناه ٠

ـ كلماتك شبه طلاسم ٠

قلت على الفور ، وبدهشة :

٠٠ كلماتى تفوق الشمس وضوحا ! ٠

حدق فيلسوف شلة الأنس فى وجوه الأصدقاء ، وقال :

ـ أنا شخصيا لم أفهم شيئا ! ٠

ضربت بكعب حذائى الأيمن بلاط الأرضية الكالح، وقلت فى ثقة بالغة :

٠٠ الحقيقة ما أقول، أرجو ألا تقاطعونى والا صمت قال أحدهم بعد أن سخن الدم فى عروقه واحمر وجهه :

ـ يا سلام ، دعوه يفرغ ما فى جعبته ، ويستريح٠

عصر الحزن قلبى فقلت بنبرات حزينة ناعمة :

٠٠ للأسف يا أصدقائى كل ما فى جعبتى هذه الليلة فى لون الرماد مسح أحدهم الجمع بنظراته المستغربة ، ومد كلتا يديه فى شبه رجاء قائلا :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ أرجوك ٠٠ لا تقلبها « دراما » ٠

بعد نوبة من الضحك المتسائل قال صديقى المهذب:

ـ يا جماعة ، الاحترام واجب على أية حال ٠٠ أعطوه فرصة يحكى حكايته ويخلصنا ٠٠ ثم استدرك

« حتى لو كانت أكثر مرارة من خمركم الرديئة هذه » ثم مال الى الخلف ، واستغرق فى الضحك ٠

بعد لحظة صمت قصيرة تحرك أطولهم قامة ، وضرب كفه بالأخرى وقال :

ـ يبدو أن الاستماع لك « قدر » لا مفر منه فى هذه الليلة ، التى لن يظهر لها آخر ٠

راحت نظراتى تمسح وجوههم الغاضبة فى لمحات خاطفة ، ثم قلت :

٠٠ على كل يا جماعة ، لن أحكى الا حكاية واحدة عشتها بنفسى ، وبكل حواسى ٠

تململوا فى جلساتهم ، وقالوا فى شبه فتور وبصوت واحد :

ـ أحك ٠

قذفت فى جوفى ما تبقى بقاع الكأس ٠٠ حملقت برهة فى وجوههم الصامتة المستطلعة ، ثم قلت :

٠٠ الغريب ٠٠ الغريب ، الأسبوع الماضى وبعد صلاة الجمعة مباشرة هرع رجل كهل من بين صفوف المصلين ، وخطف سماعة « الميكرفون » بسرعة البرق ،

وهتف بصوته الجهورى « أيها الأخوة ٠٠ حقيقة هامة ومؤلمة اعلنها عليكم اليوم ، بعد أن ظل يخفيها عنكم كل تلك السنين الطوال هذا الخطيب المزيف الدجال ، الحقيقة المرة انكم حقيقة « نساء » فلابد من ستر عوراتكم ، وكفى فضائح ، أنتم لا تدرون حقيقة أنفسكم ، أقسم لكم بالصدق نفسه أن ما أعلنته هو الحق بعينه » ٠

كانت كلمات الرجل مطرقة وهوت على الرءوس ، أفاق كل منهم من سكر الدهشة متحسسا ذلك الجزء الذى ظنوه يثبت رجولتهم المطعونة ، لكن الرجل الكهل ابتسم منهم ساخرا هازئا ٠٠ جاهد بعضهم وتقدم نحوه مؤكدا رجولته ، أما البعض الآخر فقد انسحب متحاشيا حرج تلك اللحظة القاتلة ، ولا أخفى عليكم يا أصدقائى أن هناك من ظل متأرجحا بين الشك واليقين حتى وقتنا هذا ، ولكننى فى تلك اللحظة القاسية بالذات تقدمت بضع خطوات ، وجذبت الرجل الكهل من كتفيه بقوة فرعون لأثبت له صدق رجولتى ، أومأ لى برأسه المدبب نافيا ساخرا ٠٠ آه يا أصدقائى لقد تركزت كميات جديدة مسنونة من الملح الناعم فوق جروحى المغلقة المفتوحة ٠٠ أضحى العالم فى نظرى أضيق من ثقب فى

ابرة ٠٠ حينما تصورت عصفورتى الغادرة وهى تطعن رجولتى منتهزة مثل هذه الفرصة الكاذبة فقأت عينيه ورشقت سن المدية فى نن النن ، وفررت مزمجرا ٠

وعندما جاء رجال العدالة كى يقيموا الحدود فى حارتنا ، التى بلا حدود ، لم يجــدونى ، ســألوا أمى عنى ، فى تلك اللحظة انهمرت دموعها بلون جلبابهـا الأسود ٠٠ تنهدت ٠٠ قالت :

ــ ربنا وحده يعلم أراضيه ٠

(٤)

حدق أصدقائى « البار » أسفل أقدامهم المرتعشة فى صمت غريب . وفى شرود أغرب انصرف كل منهم ــ الواحد تلو الآخر كى يبحث عن شىء كان قد فقــده وتذكره فجأة ٠

(فبراير ١٩٧٣)

الدخان .. والميلاد

كل أهل الحارة يعرفون جيدا « العبد لله » ، هذا أمر لا شك فيه ، ولكن كيف ؟! ·· أنا لا أزال ــ فى الحقيقة ــ شابا من الأرياف ، جئت لأعمل كاتب استقبال باحدى مستشفيات القاهرة ــ هذه المدينة المزدحمة الصاخبة ــ مندرجا تحت بند « ظهورات » ، وانتسب فى الوقت نفسه باحدى كليات الآداب الكائنة بها ، غريب هو الأمر ·· واذا كانت الحقيقة كما قلت ·· فكيف تعرفنى كل هذه العيون الشرهة ، والتى تمسح جسدى النحيل فى أثناء ذهابى أو ايابى ·

آه ·· لابد اذن أن أهل حارتى مثقفون جدا ، ومهتمون تماما بقراءة القصص والمجلات ، ولذلك فهم يعرفوننى من خلال قصصى التى تنشرها لى مجلات وزارة

الثقافة ، ولابد أيضا أنهم يتداولون اسمى المتواضع مسبوقا بلقب « الأستاذ » ، على الفور يتحرك لسانى مبسملا « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ٠٠ » ان هؤلاء الناس يحسدوننى على نعمة نشر قصصى ٠٠ ويتخيلون أن تلك القصص تعود على بمكاسب خيالية !! ٠٠ هكذا دائما أهل الحوارى رومانسيون ٠٠ بل لعل أحدهم فكر فى أن يبلغ مصلحة الضرائب عنى ٠٠ آه ٠٠ لو أمتلك الشجاعة لوقفت فى وسط الحارة ، وصرخت بأعلى صوتى : « يا ناس ٠٠ يا عالم ٠٠ فلتعلموا اننى لا آخذ مليما واحدا من النشر ، وأن كل ما أكتبه ــ بعد معاناة شديدة ــ يدخل عالم النشر من باب واحد ملعون ، اسمه باب التشجيع ؟! » ٠

ألعن شىء فى مدينة القاهرة « سور الأزبكية » ٠٠ باعة الكتب يا سادة يستولون على معظم مرتبى الضئيل ٠٠ والباقى منه للفول المدمس والمخلل البلدى وأقراص الاسبرين ٠٠ حجرتى فوق السطوح لم أدفع ايجارها منذ شهرين ٠٠ الحجرة صغيرة ، وباردة جدا ٠٠ آه ٠٠ يبدو أن كل الحجرات التى فوق أسطح البيوت باردة مثلها ٠٠ ما علينا ٠٠ الآن فى رأسى فكرة حانت لحظة

ميلادها ، والحقيقة اننى لا أدرى لماذا ترفض الأفكار أن تــولد الا فى عبق الدخان ؟! ٠٠ الدخان !! ٠٠ أين الدخان ؟ ٠٠ آه ٠٠ انه هنا فى جيب قميصى ٠٠ توجد سيجارتان ، سأســتخدم احداهما فى تشــهيل ميــلاد الفكرة ٠ والأخرى فى أثنــاء العملية ٠٠ هــكذا ٠٠ هكذا يكون الأمر رائعا بل غاية فى الروعة ٠

فركت يدى ٠٠ تنهدت بصوت مسموع ، أمسكت بالقلم ، جلست ، ومددت يدى من خلف ظهرى ــ دون مواربة ــ وتناولت السيجارة الأولى بكل سهولة من جيب القميص المعلق على مسمار فى الحائط خلفى ٠٠ ربت عليهــا بأصــابعى ونظراتى ٠٠ أشعلتهــا بكل رقة ، وسرعان ما تصاعدت سحابات الدخان بيضاء حلزونية ، رحت أراقبها منتشيا ٠٠ آه ٠٠ كيف تكون البداية ؟ ٠٠ ولا يهمك يا بطل ٠٠ « رحلة الألف ميــل تبــدأ بخطوة » ٠٠ طموح هو مبدع هذه الحكمة العظيمة ٠٠ هأنذا أحلق فى أفــق من اللازورد ٠٠ هأنذا ألاحــق الجملة الأولى وكأنها فراشة مشاكسة ٠٠ آه الســيجارة الملعونة لسعت أصابعى ، بسرعة أطفأتها بعد أن سحبت نفسا طويلا مسموعا ٠

مرة أخرى ٠٠ يارب ٠٠ كيف تكون البداية ؟! ،

غريبـــة !! ٠٠ لم يســـبق أن جمحت فكرة من أفكارى القصصية بمثل هذا الشكل ! ٠٠ ومرة أخـــرى مددت يدى المتوترة ، وهى ترتعش من خلف ظهرى ــ ودون مواربة ايضا ــ كى اتناول السيجارة الأخرى والأخيرة من جيب القميص ٠ ما هذا ؟! ما هذا ؟! ٠٠ السيجارة اختفت تمـــاما ؟ ! ٠ ٠ فص ملـــح وذاب ! ٠٠ أين السيجارة ؟ ،! أين اختفت الخائنة ؟ ٠٠ قميصى بجيب واحد يا عالم ! ٠٠ آه ٠٠ اللعنة ، امتدت يدى اليمنى، وضربت جبهتى ٠٠ تذكرت الآن لقد دخنت السيجارة بعد الفول ٠٠ طبعا غير معقول ، بل مستحيل أن تدخن احداهما الأخرى ٠٠ على العموم العوض على الله فى السيجارتين ٠٠ ولكن ما الحل ؟! ٠٠ لا سجاير توجـــد معى الآن ، ولا نقود ، ولابد من الكتـــابة ، الفـــكرة اللعينة تملكتنى الى درجة مزعجة ، تلح الحاحا هستيريا، تريد الخروج الى النور بأية طريقة وبأى ثمن ٠

لحظة قصيرة ، ولكنها كانت طويلة طويلة ، وقفزت السلم المتآكل قفزا ، لم آبال ٠٠ لم تعلم قدماى فوق الأسفلت البارد ، وآنا آتجه نحو المحـــل المنشـــود ، بل صمت أذناى فلم أسمع «كلاكسات» أية سيارات ، فصلت حواسى بجدار سميك عن كل الضجيج المحاصر :

ـ علبة سجاير كيلوباترة صغيرة ياعم جابر •

« قلتها بصوت واهن خجول ، وأنا أتقدم خطوة ، وأتأخر عشرا » •

ـ علبة كبريت صندوق ياعم جابر •

ـ زجاجة بيرة ياعم جابر •

ـ لابد من الرهن يا سيد •

ـ ثوانى ياعم جابر •• ثوانى •

ـ الرهن قبل الثمن يا سيد •

ـ علبة سردين يا عم جابر •

ـ التليفون بسرعة ياعم جابر •• الحالة خطيرة جدا •

ـ الباقى تمام يا محترم •• المعاملة بالمفارقة •

ـ تمام ياعم جابر •• الجيب واحد يا رجل •

ـ « الطريق واضح ومعروف ، سيارة الاسعاف حضرت نفس العنوان من قبل أكثر من مرة » •

ـ علبة سجاير كيلوباترا صغيرة يا عم جابر ، البرد كسر ضلوعى •

ـ علبة سمن بلدى ياعم جابر •

ـ علبة صلصة كبيرة ياعم جابر •

ـ علبة سجاير كيلوباترا صغيرة ياعم جابر ٠

ـ التليفون بسرعة ياعم جابر ، المشاجرة كبيرة ٠

ـ باكو معسل ياعم جابر ٠

ـ علبة سجاير كيلوباترا صغيرة ياعم جابر ، البرد شديد ٠

« صوتى الخجلان يتبدد ورنين قطع العملة فوق رخامة البنك !! » ، والعم جابر البقال لايزال منهمكا تماما مع زبائن « القبض » ، وللعلم يا سادة ـ اذا كنتم لم تعلموا حتى الآن ـ ان العم جابر صاحب مبدأ معروف يدفع رأسه دونه ، فهو لا يمكن أبدا ، ومهما كانت الأحوال أن يعطى شيئا لأحد من زبائن « الشكك » ما لم يفرغ تماما من طلبات زبائن « القبض » ، على اذن أن أنتظر حتى أصبح وجها لوجه مع العم جابر ٠٠ آه ٠٠ خلايا جسدى تخوض الآن صراعا عنيفا و «النيكوتين»، على كل ، لا بأس ، انها مجرد دقائق معدودة ، وينقضى الأمر ٠٠ وننال المراد ٠٠ وانتظرت ، وطال الانتظار ٠٠ وصراع خلايا جسدى و « النيكوتين » يقارب الذروة ٠ ما أصعب الانتظار فى مثل هذه الأحوال ٠٠ رحمك‌الله يا ابن أبى طالب، فقد كنت شاعرا حقا تحس بآلام الفقراء ، ٠٠ الحمد لله ، أخيرا التفت لى العم جابر

بعد أن صفصف المكان أمام الدكان ·· تنفست الصعداء ، فتح الرجل فمــه وأغلقه أكثر من مــرة دون داع ·· قال :

ـ تحت أمر الأستاذ ·

آه ·· لقد جاءت لحظة المواجهة ، فنظرت الى العم جابــر بكل ود متحاشــيا ، وبقــدر الامكان أى سبب للقطيعة ، وقلت من خلال ابتسامة لا معنى لها :

ـ علبة سجاير كيلوباترا صغيرة ياعم جابر ·

ـ لا توجد سجاير كيلوباترا ·

ـ علبة صغيرة من أى نوع ·

ـ كل الأنواع انتهت يا أستاذ وشرفى ·

عندما ركزت نظراتى الحادة فى عينيــه انفضــح كذبه المراوغ ، ولكن سرعان ما عدت أدراجى الى حجرتى فوق الســطوح ·· ودخلت ·· ودخلت فى أحضــان كابوس بألف ذراع ·· ولكن أرجو ألا يتساءل أحدكم ولماذا كل هذا الازعاج من أجل الدخان ؟! ·· ألم تحذرك وزارة الصحة من أضرار التدخين ؟! ·· لا أيها السادة ·· لا ·· وألف لا ·· الأفــكار لا تــولد الا فى عبق الدخان ·

(يناير ١٩٧٣)

المأزق

وقعت للرجل بسرعة خاطفه ، وبلا شعور تحرك لسانى مبسملا ، فردت الوريقة على عجل بأنامل مرتجفة ٠٠٠ قالت كلماتها بلهجة حاسمة : « كل الأمور تمت على ما يرام ، أحضر فورا لانهاء الموضوع » المرسل : على جاد البربرى — العنوان : كفر عزام ٠ السنبلاوين — الدقهلية ٠

ولما كنت أعرف تماما ، ماذا تعنى هذه الكلمات من العم العزيز ، راح رأسى يدور ، ويدور ٠٠ رحماك يارب ٠٠ التساؤل يصوب كل سهامه الى رأسى دونما رحمة ، السؤال المطارد يهوم بين تلافيف رأسى كذبابة لحوح ٠٠ أشعل سيجارتى ، وأنفث الدخان فى غيظ مكتوم فتحاصرنى الدوائر الضبابية ٠٠ يعود السؤال

مشاكسا ، آخذا نفسا طويلا من السيجارة ، وهى تهتز بين أصابعى ٠٠ آتنهد ٠٠ يهدأ التساؤل لحظة ، وسرعان ما يعود اكثر شراسة يطالبنى باجابة شافية ، ويطرح نفسه من جديد : من تختار لتكمل معها رحلة الحياة ؟! ٠٠ مكاوية بنت الخال ؟ ٠٠ سعاد بنت صاحبة البيت ؟ ٠٠ ناهد زميلة العمل ؟ ٠٠ ما أصعب الاختيــار أمام شــاب ريفى الأصــل مثــلى ! ٠٠ فى لمح البصر أطلت الوجوه الثلاثة ، وحلقت فوق رأسى المصدع ، تخرج كل منهن ما فى الجراب ٠٠ ظلت المباراة ساخنة دونما حسم. كل منهن تتبارى داخل رأسى حتى كدت أصاب بالدوار ٠٠ سامحك الله يا عمى ٠٠ الى متى أظل أنطح الصخر ، وأسبح وحدى ضد الأمواج ٠

نغمة حزن قديم تطن فى أذنى ، وصور ، وذكريات من الماضى تملأ مخيلتى فتلهب فى قلبى النار ، وتعرى فى أعماق نفسى جذور حزن دفين ، ففى الحقيقة أعيش حياتى فى صراع دائم بين مد وجزر ، بين ماض عشته عصفورا طليقا فى عش نسج من أوراق الورد، وحاضر أعيشه اليوم ذئبا طريدا فى كهف مظلم كئيب ، وكان أملى ، أن أحصل على ليسانس الأداب ، ثم أتفرغ تماما للأدب والفن ٠٠ أصبح أديبا يملك قلما مسئولا ، يعبر

عن قضايا الناس بلا حذلقة أو زيف ·· ولكن الأيام أعطتنى بدلا من القلم « مفك » و (زاردية) ، وطاقم مفاتيح ، وبدلا من الحبر « شحومات » وزيوتا ، وبدلا من القراء « أسطوات » ، وعمالا على أن أقودهم بكل حسم ·· كان على أن أحول ذلك الوضع الى لوحة أستطيع من خلالها نقش اسمى على صفحة الحياة ·

آه ·· مازلت أذكر جيدا ذلك اليوم ، كنت يومها يحمل قلبى من الآمال ما ينير أيامى ويبهجها ·· وقبل أن أصل الى بيتنا بأمتار رأيت جمعا من الأقارب والأهالى يحيطون بمدخله ، لكزت الحمار بمقدمة العصا المدببة ، فضرب بحوافره الأرض ، ولم يتحرك ، قفزت من فوق ظهره فى خفة ، أسرعت الخطا ، هرولت لاهثا ·· وفى وسط أمواجهم الواجمة ، رأيت تابوتا خشبيا مغطى بسجادة قاتمة ·· كانت أكثر وجوما ·· آه ·· مات أبى فجأة !! ·· وماتت معه تلك الصرخة التى ظننتها ستقهر القدر ، ولكن القدر قد رمى بسهمه ، ومضى ·· سامحك الله يا أبى ·· كيف طاوعتك نفسك ، وأنت فى شيخوختك أن تنجب كتاكيت ، ثم تمضى هكذا ، وتتركها بلا أجنحة ؟! ·

كنت أكبر أخوتى الثلاثة ·· والواجب والعرف

والتقاليد تحتم على أن أكون عائلهم المسئول منذ تلك اللحظة الغادرة ·· لم أعد البكرى المدلل ، الذى يطلب ما يشاء ، أصبحت لا أملك الا أن أجيب مطالب الآخرين ، وأنسى نفسى ·· آه ·· تخليت فى قسوة ، وقسرا عن اتجاهى الأدبى الى التعليم الصناعى على الرغم من حصولى على مجموع كان يمكننى من الالتحاق بأحسن مدارس التعليم العام ، هادفا اختصار الطريق حتى أنقذ القارب الراجف من غدر الأمواج ، وأصل به الى بر الأمان ·· وهل كان فى استطاعتى غير ذلك ؟·

ما يقارب العشر سنوات من الكفاح المتواصل فى سبيل الصغار ·· عشر سنوات تقريبا لم أدخل مرة سينما ، أو أجلس على مقهى ، أو يكون لى مجرد أصدقاء وكثيرا ما نمت بلا عشاء ، حتى حصل أصغرهم على مؤهلى ، ووصل الآخران الى أعلى من ذلك ·· عشر سنوات كادت تكتمل ، وخالى أحمد مكاوى — دون غيره — يمد لنا يد العون ، ويساند ، يراعى بعناية تلك القراريط ، التى استأجرها أبى ذات يوم من أحد أعيان القرية : يزرع ، يروى ، يراعى ، يحصد المحصول ، يحاسب المالك ، ويعطينا الباقى عن طيب خاطر ·· قلت له ذات مساء : « اننا نثقل عليك يا خال · » نفرت

عروق رقبته الشامخة ، احتقن وجهه المغضن ؛ رد بغضب ، وفي شهامة : « أبوك ــ الله يرحمه ــ كان صديقى الروح بالروح ، ونحن كفلاحين نعرف جيداً حقوق الصداقة » ٠

بعد لحظات قصار التفت فوجدنى أربت فى حنان بالغ على كتف مكاوية وحيدته ، وهى جالسة أمام الفرن تساعد أمى ، وأعدها بالزوج فانفرجت أسارير الخال وبانت أسنانه الصفراء ٠٠ ثم خرج فى خطوات واثقة متناغمة دون أن يعتمد على عصاه ٠

ومنذ ذلك الحين ، ومكاوية تعيش على وعدى ، كأن ذلك الوعد قطرة ماء رعرعت براعم الحب فى أعماقها، رفضت باصرار كل من تقدم لها ، كان حلمها ــ ــ ولا يزال ــ ككل قروية أن تسكن البندر ، تطل من الشرفة ، ترى الناس من عل ، تشرب الماء النقى ، تأكل الخبز الطرى ، والفلافل الساخنة ٠٠ ولكننى فى الحقيقة لم أحبها ، ولم أشعر بأدنى عاطفة نحوها ، وعدتها أمام الجميع ، فى لحظة لم أستطع الفصل فيها بين حب الخال وابنته ، وها هو ذا عمى يبرق لى بالحضور الفورى لانهاء الموضوع ، واتمام الزواج ، قبولى معناه الموت لى وأنا على قيد الحياة ، ورفضى ــ بعد هذه المدة ــ

سيكون قبرا لأعز آمالها ·· ربما تفعل الألسنة الثرثارة فعلها فتخرم قلبى رصاصة ·· أصير ضحية ·· والأمثلة كثيرة ، ومماثلة ·· يارب ·· يا حكيم ·· الهمنى الحكمة حتى أخرج من هذا البئر ·· سامحنى يا خال ·· كن فوق الظرف ، لن أتزوج الا بمن يجرى حبها فى عروقى مجرى الدم ، هل تعلو يا خال فوق الظرف ؟ ·

أتيت الى المنصورة جريا وراء لقمة العيش ، واستقر المقام بها ·· منذ ست سنوات ، ولم يخطر ببالى يوما تغيير مسكنى هذا ، كانت سعاد بنت صاحبة البيت تلميذة بنهاية الحلقة الأولى من التعليم الأساسى ·· طلبت أمها أن أعطيها دروسا خصوصية ، وراحت ترجونى ، وترجونى فهى وحيدتها ، وكل ما أعطت لها الأيام ·· كانت تريدها موظفة مثل أبيها ·· تتزوج موظفا مثلها ، يكون سندا ضد الأيام المجهولة ·· لبيت الرجاء أعطيتها الدرس ، بذلت الجهد ، ولكنها لم توفق ·· كان حظها على ما يبدو عاثرا ، فقد أعادت قيدها ولم تحصل الا على المصدقية ، فيئست تماما ·· واكتفت بادارة محل البقالة القابع بالدور الأرضى من منزلهم بدلا من أمها ، التى تدهورت صحتها بعد وفاة زوجها ·

ويوما بعد يوم تفتحت الورود لنداء الحياة ، جرت دماء الشباب حارة فى عروقهـا ، اشتعلت النيران فى الجسد الفائر ، كانت دائما قلقة ، وعينـاها تعكسـان بوضوح عذاب شىء تجهل كنهه ٠٠ ومن هنا أمسـكت بطرف الخيط ، وبدأت اللعبـة ، لبيت النـداء بنظـرة حانية ، وبسمة مشجعة ، وكلمة رقيقة تحب سماعها٠٠ ورويدا رويدا بدأت الخيوط الحريرية اللامرئية تمتد وتمد جسور الود ، وبعد فترة قصيرة أمام الحاحهـا ، وتلميحات أمها وجدتنى أعدها بالزواج، وأنا أعلم تمام العلم بأنه مجرد وعد٠٠ وانما كان ذلك الوعدالضبابى فى نظر سعاد وأمهـا مبررا أن آخـذ من المحـل علب السجاير السوبر ، وكل ما أريد بلا مقابل ، بل تغاضت الأم عن عدم تسديد ايجار مسـكنى شـهورا ، وكثيرا ما أخذت سعاد المفتاح ، تنظف المسكن ، تطهو الطعام ، تغسل الملابس ، ترتب الأشياء اذا لزم الأمر ، كل ذلك يحدث باعتبار ما سيكون بالقطع ٠٠ ولكن ٠٠ ولـكن هـذا ــ فى الحقيقة ــ لم يمنع من دخول سـعاد دائرة الاختيار الصعب ٠

وذات صباح مشرق ، وأنا أركب سـيارة الشركة جذبنى وجه جميل ، يركب معنـا لأول مرة ٠٠ قلت

بتلقائيـة فى صـوت هامس ، وأنا أجلس بجـوارها مباشرة : «يا الله ٠٠ أنت جميل تحب الجمال » فرفت ابتسامة حلوة على شفتيها الرقيقتين ، ولعقت شفتها السـفلى فى صـمت، ٠٠ رحت أنفث دخان السـيجارة تجاهها ، وحينما وجدتها تتبرم فى جلستها من حلقات الدخان المتلاحقة ، شعرت نحوها بتعاطف غريب ، لم أشعر بمثله من قبل . ففركت السيجارة ، وهى شـبه كاملة بمقدمة الحذاء ٠٠ وسرحت ، فى اليوم التـالى ركزت نظراتى فى عينيها لحظة خاطفة ، ثم عرفت من خلال كلماتها المتناثرة انها زميلة جديدة بقسم شـئون الأفراد ٠٠ فى اليوم الثالث رأيتهـا فى مطعـم الشركة تتناول الغداء ، تجلس على المـائدة المقابلة فأحسست بفرحة غامرة ، وأدرت معها حـوارا بالبسمات ٠٠ فى صباح اليوم الرابع حينما رآتنى بالسـيارة فى أجمل هندام ابتسمت فى صمت ناطق ، وسرعان ما التفتت الى الاتجاه المعاكس ٠٠ لحظة وصولنا ٠٠ اقتربت منهـا ، وهى تسير نحو الداخـل ــ وحـدها ــ وقلت بثقة فى صـوت مشـحون بالعاطفة : « الى متى يا آنسـة ناهد نظل نتحاور بالبسمات ؟! ردت بصـوت أكثر همسـا ، وهى تواصل خطواتها المتناغمة : « أنت شاعر ؟! ٠ »

قلت بنبرات كساها حزن مفاجىء : « كنت شـاعرا ، ولكنى الآن أقص عليكم أحسن القصص . » فضحكت وضحكت .. وتمزقت الحواجز الوهميـة فى لمحة .. وفى اليـوم الخامس تناولنا معا وجبـة الغداء بمطعم الشركة ، تحدثت كثيرا ، وتحدثت عينـاها أكثر .. فى السادس .. لم أرها طوال اليوم .. فكاد عقلى يطير، وتأكدت فعلا من حقيقة مشاعرى .. فى اليوم السابع ذهبت الى الشركة ووجهى يعلن اننى قضـيت ليلتى مؤرقا ، وحينما رأيتهـا قلت بنبرات أحست هى بمدى صدقها : « ناهد الحياة عدم بدونك » واختلجت أسارير وجهها ، وقالت عيناها أروع قصيدة حب ، فشعرت أن قلبى أخضر من جديد ونفض كل عذابات المـاضى فى لحظة ، وتخلقت فى شقوق الروح أسمى معانى الخير .. فى تلك اللحظة بالذات تصير كل المسافات بين الأحباب ضربا من الوهم ، وتصبح كل اللحظات السـابحة فى بحور الحب شيئا لا يقاس بمواقيت العصر .. ولكن .. ولـكن برغم كل ذلك ، سـيظل الـزيف يطارد لحظات الصدق .

(ديسمبر ١٩٨٠)

صمتا .. أيها الضجيج

الليل يلملم أثوابه فى بطء ، والأقدام الست يرن صوت وقعها فى هدأة الليل على أسفلت الشارع المتجه نحو الميدان . كان الحديث بين الأصدقاء الثلاثة كأسا معتقة ، اذا نظرت اليهم ـ لحظة مرورهم تحت أضواء النيون الساهرة ـ لاحظت الأول قصيرا والثانى طويلا والثالث نحيلا ذا شعر فاحم ، وشعاعا من ضوء يبرق متقطعا . قال النحيل ذو الشعر الفاحم لصديقه القصير :

ـ ألم تر شيئا ؟

لم يرد عليه .. فأردف قائلا فى ثقة واضحة :

ـ رأيت نورا أضاء .. ثم انطفأ ! .

قال القصير بلا اهتمام :

ـ ربما سيارة عبرت الميدان ٠

قال النحيل ذو الشعر الفاحم متعجبا من برود أعصاب صديقه القصير ، وقد شابت نبراته حدة

ـ كان ضوءا خاطفا ٠٠ السيارة تظل أنوارها مضاءة بلا انقطاع ! ٠

عقب الطويل على حوار صديقيه بضحكة ساخرة مكتومة ، وحث الخطا فتقدمهما بضع خطوات ٠

على الرغم منهم تعلقت أبصارهم بأرجاء الميدان الوسيع ، الذى بدا ساكنا فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ٠٠ وفجأة لمع شعاع الضوء ـ مرتين ـ ثم انطفأ ٠ قالوا فى نفس واحد :

ـ ترى من أين يأتى ؟! ٠٠

لم يكملوا الجملة ، وسطع الضوء ـ ثلاثة مرات متتالية ٠٠ ثم انطفأ ! ، قال القصير فى اهتمام ظاهر :

ـ هل تظنان أنها اشارات ضوئية ؟ ٠

قال النحيل ذو الشعر الفاحم فى هدوء على غير عادته :

ـ تبدو كذلك ٠٠ حتى الآن على الأقل ٠

وسرعان ما شعروا بتيار غريب دافىء يحيطهم ، لكنه جعلهم يرتعدون كأنه « ماس » كهـربى ٠٠ وفى لحظات انطفأت أنوار الميدان ، والشوارع المؤدية اليه ٠٠ فى الوقت ذاته خمدت جذوات سـجائرهم ، التى أشعلوها من لحظة ٠٠ ازدادت رعشتهم وهم يرون قرصا هائلا من اللهب ككرة ضخمة تتراقص فى قلب الميدان ، تدور حول نفسها وفى الوقت نفسه تتقـدم نحـوهم مسرعة ، زاغت أبصارهم فلم يتأكدوا من ملامح ذلك الشكل النارى ، الذى اندفع نحوهم بسرعة مجنونة ٠٠ رموا بأنفسهم على الأسـفلت ، ودفنوا رؤوسـهم بين كفوفهم ، ورعشة شديدة تهز أوصـالهم ٠٠ أحسـوا برؤوسهم ثقيلة ، وتصوروا أن أياما طويلة قد مضت وهم نيام ٠

حينما أفاقوا ، ونظروا الى الميدان وجدوا أنواره مضاءة كما تركوها ، وكذلك الشوارع المؤدية اليه ، وسجائرهم يتصاعد الدخان منها فى شكل حلزونى متحديا ٠٠ تظاهروا بالتماسك وان كانت أرواحهم قد سقطت فى أقدامهم ٠٠ لم يمكثوا على هذا طويلا وارتفع فجأة صـفير حاد متقطع ، وسرعان ما حاصرتهم طلقـات

الرصاص الصامت ـ من كل جانب ـ الطلقات تمرق من فوق الرءوس ، وتحفر حفرا صغيرة أسفل الأقدام ‥ ثم ‥ مرت اللحظات كدهر ثقيل‥ ثم ساد الميدان سكوت مميت ٠

حينما لمح النحيل ذو الشعر الفاحم الكرة النارية تتأرجح فى طرف الميدان ركض نحوها فى جرأة بينما رأى صديقاه سيارتين تحركتا ـ لحظة تقدم صديقهما ـ ثم ابتلعت الأرض السيارتين فى ثوان ، أما الكرة النارية فظلت قابعة متوهجة فى أقصى الميدان ، ترتفع عن سطح الأرض أمتارا ، ومحاطة بموجة كبيرة من الضباب الداكن ٠ ورويدا رويدا بدأ الضباب يتخفى وراءها ثم هبطت فى بطء حتى لامست الأرض برفق شديد ‥ وظهر مكان الضباب جسم مستدير ذو حافة حادة غريبة ، يقف على ثلاث سيقان نحيلة كزعانف مدببة طويلة ، وسرعان ما ظهرت فتحة فى جداره كباب يفتح من الداخل ‥ هبط منه سلم رقيق عليه نزل شخص ثم آخر ‥ يرتديان ملابس غريبة ‥ تعلو رأسيهما أسلاك رفيعة دقيقة تتذبذب وتهتز فى الهواء ‥ بسرعة اتجها الشخصان الى صديقهما النحيل ذى الشعر الفاحم ، ورفعاه داخل ذلك الجسم ‥ وفى لمحة

ارتفع السلم ، وأغلق الباب أوتوماتيكيا ٠٠ انقشعت موجة الضباب تماما ٠٠ ثم لمعت أضواء الجسم المستدير وتوهجت ، وسرعان ما تلاشت تماما ، وهو يدور دورة كبيرة صوب السماء مخلفا وراءه حفرة كبيرة تتسع لدفن أكثر من عشرين جثة بدينة ٠

في تلك اللحظة دار الصديقان حـول نفسيهما ، ودارت بهما الأرض عدة دورات قبل أن يرمحا بعيدا عن الميدان في فزع جامح ٠٠ راحا يدقان الأبواب الموصدة دقات سريعة مضطربة ، غير مباليين بكل اللعنات والذعر البادي في عيون النسوة والأطفال ، غير عابئين بأسئلة مبتورة تلاحقت خلفهما في الحاح ، أجابا على كل شيء بكلمات مبهمة ملغزة : « الميدان ٠٠ الحريق ٠٠ رجلان من السماء » وحينما يسمع كل من يصحو هذه الكلمات يسرع بدوره يدق في عنف ما يصادفه من أبواب ٠٠ ويصيح معلنا النبأ بنفس الكلمات المبهمة الملغزة ٠

الفضول وحب الاستطلاع كانا سياطا ألهبت ظهور الخلق بلا رحمة ، فركضوا نحو الميدان كطوفان كاسح ٠٠ بدوا كأشباح باهتة وسط الضباب الفجري المندى ٠٠ علت وجوههم أكثر من علامة استفهام ، وهم يرون الحفرة الكبيرة ٠٠ وقد جثمت في بؤرتها كائنات حية

غريبـــة ، ذات لون فضى لامع ، يتصـــل بعضها ببعض بأسلاك دقيقة معقدة ٠٠ لا يعلم أحد من أين تبدأ أو تنتهى ؟! ٠٠ حينما دققوا النظر فى تلك الكائنات تأكد لهم نهـــا لا تنتمى الى كوكبهم الأرضى ، علت ملامحهم دهشـــة ممزوجـــة بخـــوف وتوجس كبيرين ٠٠ تمازج الهمس بالهمهمات ٠٠ فى لحظات اختلطت الأصـــوات وتداخلت الجمل تطرق الآذان : « أشباع عربيدة جاءت تدمر المدينة » ، « وهذه رسالة ذات مغزى » ، « بركان عادى كأى بركان » ، « هذا شهاب ما سقط الا من غضب الله » « هذا كنز جاء فى وقته المنـــاسب » ، « هـــذه الكائنات بقايا آثار مدينة قديمة أقيمت على أنقاضها مدينتنا » ، « هذه مخلفات طبق طائر » ، « هـــذا عصر غرائب الأطباق الطائرة » « هـــذه خدعة جديدة تلهى الناس عن مشكلات حياتهم » ، « أنت شـــيوعى تروج الاشـــاعات » ، « أنت رجعى متخلف » « أنت جاهـــل وأفاق » ، « استعيذوا بالله يا عالم نحن فى خطر » ٠٠ اختلفت الظنون والتكهنات ٠٠ تبادلوا الاتهامات ٠٠ بل تعددت الرؤى وغامت ٠

فى الفجر مع بدء البث الاذاعى طار الخبر ، وتناثر فى طول البلاد وعرضها ، يزرع الدهشة فى العيون ،

والخوف فى القلوب ، وكالعادة فى مثل هذه الأحـوال أعقب الخبر تعليمات مشددة وجهت للمواطنين من باب الاحتياط ·· وعلى الفور نشطت أجهزة الشرطة ، فراح رجال المرور يحولون المسارات لشوارع جانبية تفاديا للمرور من الميـدان ، الذى اكتظ بالخلق ·· أعلنت الطـوارىء فى أقسـام البوليس ، ومراكز البنـادر والاطفاء ·· المخابرات العامة طرطقت أذنيها ، فبدأت الاجتماعات ، وأعدت الترتيبـات لأية احتمالات ·· القوات المسلحة باتت عينـا يقظى تحسبا لأى عدوان متوقع ·· لزم رؤساء مجالس الأحياء وكبار أعضـاء الحزب الحاكم حجرات العمليات فى كل حى ، وكل بندر ·· دعى المجلس النيـابى لدورة غير عادية ·· نهض كبار علماء الدولة ، وتوافدوا على الميدان اثر اتصالات هاتفية عاجلة ، وبسرعة شكلوا لجانا على أرفع مستوى حتى يقوموا بدورهم تجاه الحدث المفاجىء ·· انشغلت تماما الوحدات الحسابية بالجهـات المعنيـة فى اعداد كشوف صرف المكافآت والأجور الاضافية والجهود غير العادية ·· تغيرت ومنذ ساعات الصباح الأولى برامج الاذاعة والتليفزيون ، وتصدر النبأ الصفحات الأولى فى صـحف الطبعة الثانيـة ·· طالت الأعنـاق ، عربد

التساؤل فى عقول الشباب والطلاب ، فكان الخبر المذاع موضوع الحصة الأولى فى كل المدارس والجامعات ، وان كانت اجابات الكبار لم تشف غليلا ، أو ترح ضميرا ٠

أطل العلماء فوجدوا الكائنات الغريبة ترقد فى حالة لا مبالاة وسط الحفرة الكبيرة محاطة بحراسة مشددة من رجال الأمن المركزى خاصة بعد أن حاول مواطن لمسها فمات فى الحال بمجرد اللمس ٠٠ ظلت الكائنات شاخصة بعيونها الى السماء ، وقد استقرت على وضع واحد ، النوم على الظهر ، والساق فوق الساق ، والاشعاع المنبعث من أجسادها يرسل ضوءا حادا يعشى العيون ، ويدير الرءوس ٠٠ ولكنهم حينما ركزوا نظراتهم من خلال العدسات المكبرة رأوا ما لم يصدقوه ، رأوا عيونا للكائنات تلمع وتبرق من خلف قناع فضى شفاف — أغمض كل منهم عينيه وفتحهما ليتأكد مما يرى — وأن ما رأوه كان حقيقة واضحة ٠٠ التفت أحد العلماء ، وأطلت من عينيه تساؤلات حائرة فتحلقوا حوله ، وتبادلوا بضع مصطلحات غامضة ، ثم اتجهوا الى سياراتهم ، وجاءوا بآلات كثيرة معقدة ، وعدد من أجهزة « التيلى » ، وبدأوا يلتقطون صورا متعددة للكائنات الجاثمة من زوايا متباينة ، وسرعان

ما ظهر على الأفلام ، أن كل كائن يستريح فوق مقعد معدنى صغير يشبه كرسى « البلاج » وفى أسفله لوحظت آلات غريبة معقدة يحتويها مكان يشبه سيارة نقل فى حجم علبة الثقاب مملوءة بأزرار يحمل كل منها رقما مختلفا عن الآخر ، وفى نهاية كل زر مصباح يضىء بلون مغاير ٠٠ نبش العلماء خلايا رؤوسهم ، وفكروا طويلا ، ولكنهم وقفوا عاجزين تماما أمام تلك الآلات الدقيقة المركبة فى تعقيد فريد ، لم يروا مثله من قبل٠

حينما تأكد للعلماء عجزهم التام حيال مواجهة تلك الكائنات أو ادارة آلاتها المعجزة طفقوا يوجهون اليها ــ وكانت لاتزال ترقد متحدية ، تبرق اليهم بعيون ثعبانية هازئة من وراء أقنعتها الفضية الشفيفة ــ أسئلة بكل لغات الأرض : « من أنتم ؟! ٠٠ من أى كوكب جئتم ؟! ٠٠ آين أخفيا زميلاكما ابن كوكبنا الأرضى ؟! ٠٠ آمستعدون للتعاون معنا ؟! ٠٠ أجئتم للسلم أم للحرب ؟! ٠٠ ما الذى جعلكم ترقدون هذه الرقدة المستفزة ؟ » ، ولكن الكائنات ظلت صامتة تتحدى ، لم ترد بحرف أو اشارة ٠٠ والرقدة هى هى ، النوم على الظهر والساق فوق الساق ، العيون شاخصة الى السماء ٠

قال أحد العلماء فى شبه يأس ، وقد نضحت نبرات صوته بالحزن :

ــ يبدو أن نبوءة ماك آرثر ستتحقق ٠٠ لا محالة ٠

سأله أحد الصحفيين الفضولين بلهفة ظاهرة :

ــ ماك آرثر ! ٠٠ من ماك آرثر ؟! ٠٠ وما نبوءته الجديدة ؟

ــ الجنرال ماك آرثر ٠٠ أمريكا ! ٠

فاستطال وجه الصحفى ، وارتخت ملامحه فى بلاهة فاردف العالم متعجبا فى قرف وباقتضاب :

ــ رئيس الأركان الأمريكى الأسبق ، ونبوءته أن الحرب الثالثة ستكون بين الكواكب ، وأن شعوب الارض ستعرف يوما حتمية تشكيل جبهة متحدة ضد هجوم أناس من كواكب أخرى ٠

فسأله فى الحاح واضح :

ــ متى قال ذلك ؟! ٠٠ متى صرح بذلك ؟! ٠

ــ أواخر خمسينيات هذا القرن ٠

التفت الرجل يمنة ويسرة فتعبت أعصابه من النظرات المستهزئة فانسحب مسرعا يلحق بزملائه

العلماء ، الذين كانوا قد اتجهوا الى مركز تجمعهم فى خطوات متثاقلة ٠

تقدم ضابطان ، وبعض الجنود ، وحاولوا استنطاق الراقدين بالضرب من على البعد فباءت المحاولة بالفشل الذريع ٠٠٠ ٠ثم برز من بين النـاس أسـتاذ جامعى حاصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة الحديثـة من احدى الجامعات الكبرى قائلا بصوت رنان وهو يضغط على مخارج الحروف :

– [فى الواقع ان المنطق العلمى يستلزم منا جميعا أن نكون منطقيين فى أحكامنا ورؤيتنا للأمور ، وأن نكف فورا عن هذه الغوغائية البلهاء ٠٠ هذه الكائنات فى الحقيقة من أتباع مذهب فلسفى حديث ، قرأت عنه منذ فترة فى أوثق المصادر العلمية العالمية ٠٠ ويقول منشىء هـــذا المذهب : « ان الصـمت موقف »] ٠٠ وبسرعة أخرج علبة سجائره ، وحاول أن يقدم للكائنات سجائرا كائنا كائنا فلم يكلف أى كائن خاطـره عنـاء الرفض أو الاعتذار ، وعندما نظر حوله وجد النظرات الساخرة حبلا يلتف حول عنقه ، فتأبط حقيبته وانطلق راكضا بعيدا عن الميـدان ، ونظرات النـاس دبابيس تنغرس فى ظهره ٠

أرسل التليفزيون أكثر من وحدة من وحدات التصوير الخارجى تسجل وقائع الحدث الشاغل ٠٠ أخذت لمبات التصوير تلمع وتتوهج فى وجوه الكائنات فلم يطرف لها جفن ٠٠ ولم ينس مقدم أحد البرامج التليفزيونية أن يجعل الحدث مادة حلقة كاملة من حلقات البرنامج ، فاستضاف أحد كبار أساتذة علم النفس ، الذى تحدث طويلا عن سلوكيات الصامتين ، والدوافع النفسية ، التى يتمحور حولها هذا السلوك السلبى وليد عصر الآلة اللاهث ٠

شغلت القضية ، قضية الكائنات الصامتة اهتمام الناس ، واحتلت بؤر مشاعرهم فاستغل أحد مخرجى المسلسلات التليفزيونية هذا الاهتمام الجماهيرى ، وأعلن فى حديث تليفزيونى خاطف عن مسلسل جديد موضوعه « الكائنات الصامتة » وقد صرح ذلك المخرج الهمام فى نهاية حديثه : « ان مشكلته الحقيقية تدور حول البحث عن حل فنى يوصل به صوت الكائنات الصامتة الى أذن المشاهد ٠

فى مساء اليوم نفسه ، وبينما كان العلماء ورجالات الدين والسياسة يتأهبون لمؤتمرهم الكبير بحضور كبار

المسئولين ، وعلى عكس ما توقع الجميع تلألأت الأضواء وتوهجت فغمرت أرجاء الميدان الوسيع ·· وبعدها بلحظات اختفت الكائنات الصامتة تماما ·

(أكتوبر ١٩٨٤)

قـراءة فى :
الســيف والــوردة

بقلم : فتحى سلامة

أحب أن أسجل هنا ، فى البداية ، انه من الصعب اصدار أحكام نقدية جازمة وملزمة لمجموعة قصصية ، وخاصة تلك التى ترى النور لأول مرة فى تلك السلسلة التى تهدف الى الغوص فى أعماق وطننا الحبيب لتقديم اللآلىء المخبوءة ، والتى حاول عصر ضيق ذات اليد فى دنيا الكتاب ٠٠ قتلها وطمسها ان هذه السلسلة تفتح بابا للأمل ، وتقدم عوالم متعددة لفن الابداع الأدبى فى كل صوره وأشكاله ، وأعتقد ان الدراسة النقدية التى تقـدم مع المجمـوعة ، انما هى بغرض التلميح لا التمحيص ، والاظهـار لا البحث عن العيـوب ، بل وتتعدى فكرة النقـد كما نفهمها وهى دخـول عالـم المجموعة والغوص فيها ، ثم شرحها للقارىء ، وتقريبها اليه ، وبيان ما أحسن فيه الكاتب وما خاب !

اذن هذه القراءة ، المقصـود بهـا ، التعـريف والايضاح ، وتقديم كاتب من كتاب القصة الذين لهم صوت واضح فى ميدانها ، واعتقد ، وهـذا من باب الاجتهاد ، ان هذا يكفى حتى لا تصبح هذه المقدمة أو القراءة المنشورة مع المجموعة القصصية حجر عثرة أمام المجموعة ذاتها ، ولهذا أرى انه لا داعى لاصدار أحكام، واتخاذ سمة الناقد الفاهم المدقق والتصريح بما يجب وبما لا يجب ، وكفانا هذا القدر الهائل من (الأحكام) التى تصدر دون استئناف ، والتى أصبحت مثل مقصلة الثورة الفرنسية لا تكف عن الذبح ، ان الفن اجتهاد ، والنقد وجهة نظر فى الاجتهاد ، الاجتهاد بابه مفتوح وسيظل ، ووجهات النظر جميعها لها أسانيدها، وستظل مقبولة ، بقدر الافصاح عن أسانيدها · وعليه فاننى أعتقد أننى سوف أقدم على قراءة مكتـوبة لمجمـوعة القاص حسن الجوخ ، والتى بين أيدينا الآن ، بعنوان (السيف والوردة) وهو عنوان فى حد ذاته جميـل ، وله وقع خاص ، وهو عنوان القصـة الأولى فى هـذه المجموعة ، وقد أحسن الكاتب اذ يختارها لتكون بداية لمجموعته وعنوانا لها ·

● **قراءة فى المعمار الفنى للمجموعة :**

سوف نبدأ فى القراءة ، على أســاس تقسيمها الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو الحديث عن الشــكل الخــارجى والشكل الداخلى وتوازن هذين الشــكلين معا ، ونحن نؤكد ان هذا التقيم سيكون من باب القراءة المكتوبة ، أو السباحة الحرة فى عالم هذه المجموعة ٠

والمجموعة ، تحتوى على عشر قصص ، كتبها المؤلف فى الفترة من أوائــل عام ١٩٧٣ وحتى نهــاية عام ١٩٨٤ ، أى على مدار اثنتى عشرة سنة تقريبا ، وهى فترة زمنية طويلة ولكننا نلتمس لكاتبنا العذر ، اذا عرفنا أنه انشغل أيضا ، خلال الفترة نفسها بكتــابة مقالات ودراسات عديدة ، عن فنون القصــة القصــيرة وبعض كتابها فى مصر ، ولابد أن الكاتب قد تبدل فيها وتغير ، تبدلت أفكاره ، وتغيرت أحواله وتغير العالم من حوله وتبدل ، وهو أمر يجب أن يكون فى الحسبان عند دراســة المضمون بكل أبعــاده ، فالــكاتب ابن عصره ، وربيب زمنه ، وبما أن الزمن الآن أصبح سريع الخطــو متلهف على الانصرام ، فانه قد أصبح متقلب المزاج سريع الغضب ، والكاتب كذلك ، ولا يظل الحال كما هــو الا فى عالم الأموات وهذا ما لم نعلمه تأكيدا ٠

ونشرت قصص المجموعة ، فى مجلات وجرائد مصرية وعربية مختلفة مثل : ابداع والهلال والكاتب والقصة فى مصر ، والبيان فى الكويت ، والوطن بسلطنة عمان ، وأذيعت جميعها فى البرنامج الثانى ، وصوت العرب بالاذاعة المصرية وعلى هذا فان المجموعة تكون تقريبا قد عبرت الى القارىء من قبل ، ولديه فكرة عنها ، وان جاء هذا على فترات طويلة متباعدة ·

وقد آثرت ذكر كل تلك البيانات والتواريخ ، لكى أضع القارىء فى الصورة التى تخيلتها عندما بدأت القراءة لكى أتوصل الى الشكل الخارجى ، والذى وجدته يختلف باختلاف كل قصة ولنبدأ القراءة ·

حتى تستقيم لنا الأمور ، سوف نأخذ قصص (الدخان والميلاد) و (الفكاك من الدائرة) و (حدث فى حارة البطل) و (الرحلة) ، فى لوحة واحدة ، فكل تلك القصص كتبت خلال عام ١٩٧٣ ، وهو عدد كبير سجله الكاتب فى تلك السنة ، ويبدو انه كتبها تحت تأثير وقوعه فى براثن عالم الغضب ، وما صاحب هذا العالم من انفلات للشكل ، والرغبة فى تحطيم القالب المتماسك للقصة !

وقصة (الدخان والميلاد) ، تكاد تكون ذات شكل تقليدى فى النصف الأول منها ، والتقليدى هنا بمقياس ما أحدثه جيل الستينيات من ثورة — أدت الى وجود فن معمارى جديد للقصة القصيرة ، من هذه الأشكال المعمارية ، تلك التى يبنيها الكاتب أمام القارىء ، وكأنه يقف على المسرح ، يضع كلمة فوق أخرى ، ثم يعود فيبدل بينها · وهذا شكل أخذته القصة من المسرح الحديث فى ذلك الزمن ، (مسرح براندللو) ، ثم مضى حسن الجوخ فى قصته على هذا الشكل حتى هبط الى الشارع للحصول على الدخان ، فاذا بنا أمام الجزء الثانى من القصة والذى يعود بنا الى القصص الاجتماعية التى كانت سائدة فيما قبل الستينيات ·

وعندما نحاول مقارنة الشكل الخارجى بالمعمار الداخلى ، ونسأل هل استطاع الكاتب أن يستخدم المعمار الفنى لقصته استخداما ذكيا ومفيدا ، فاننا سوف نتلكأ فى الاجابة ، ونقول انتظروا حتى نقرأ معا القصة التالية وهى (الفكاك من الدائرة) وهى لا تبتعد كثيرا فى زمن كتابتها عن الأولى ·

و (الفكاك من الدائرة) ، تكاد تكون محاولة ناجحة لتجربته الأولى ، فنجد أنفسنا أمام تجربة ناضجة

لبناء شكل خارجي يعبر تعبيرا صادقا عن عصر كتابتها، ويشي بما وصلت اليه القصة فقد استطاع الكاتب أن يحقق ذاته وأن ينقش على الورق الأبيض سطوره المعمارية لكي يرسم لنا شكلا جديدا من أشكال الاحتجاج عن طريق القصة ، وقد تلاءم المعمار الفنى الداخلى مع الشكل الذى صممه الكاتب ، وسوف يظهر هذا واضحا عندما نعود الى قراءة المضمون واللغة فى تلك القصة • وعلى هذا نستطيع أن نقول أن قصة (الفكاك من الدائرة) ، جعلت الهروب من اجابة السؤال الذى طرحناه عندما قرأنا القصة الأولى كان صوابا •

(حدث فى حارة البطل) ، مايزال الكاتب ، تحت تأثير الاحتجاج عن طريق القصة ، وما يزال يرسم نفس الشكل ونفس اللوحة ، التى رسمها فى قصته (الفكاك من الدائرة) ، ولكنه انزلق قليلا نحو البناء الملفت للنظر ، فاختلف معه المعمار الفنى ، واستخدم طريقة ألقت القصة فى بئر الصياح، أدى هذا الى توتر القصة ، واختلاف خطوطها وارتباكها ، وان حفلت بكثير من المنمنمات الدقيقة الموحية بالفن •

ونأتى أخيرا الى قصة (الرحلة) والتى نلاحظ انها هى أيضا تكاد تكون مكتوبة فى زمن كتابة القصة

السابقة (حدث فى حارة البطل)، فزمن الكتابة للقصتين، لا يزيد عن شهر ، ولهذا نراها أكثر نضجا ، وخطوطها العامة متسـقة مع معمارها الداخـلى ، وقد وظفهما الكاتب توظيفا جيدا ·

وفى اعادة لقراءة تلك القصص التى جمعناها معا، نظرا لانتسابها لزمن معين ، نرى أن حسن الجـوخ ، اختار طريقا وسطا ، بين الأشكال الفنيـة التى كانت سائدة خلال تلك الفترة ، واعتمد فى خطوطه العـامة فى قصصه تلك على الخطوط المتقاطعة ، والتى تحقق له نوعا من التوتر الفنى ، وفى نفس الوقت ، أبقى للشكل الكلاسيكى القديم بعض أثر فى تلك القصص ، ربما تحقيقا لرغبته فى ايصال ما يريد قوله للقـارىء ، وخوفا من الهبوط فى عالم التغريب · وسوف نلاحظ ان الكاتب فى السنوات التالية ، اسـتفاد من تجربته تلك ، ومن خـوفه هـذا فقام بهـدم ما تبقى من أثر كلاسيكى · وشيد لنفسه عالما ـ أصبح خاصا به ـ كما سنلاحظ بعد قليل ·

ثم نأتى بعد ذلك للقصص التى تلت ذلك ، وفقا للترتيب الذى اتخذناه وهو أسـاس تاريخ كتابة كل قصة ، نجد أن لحسن الجوخ قصة واحدة فى عام ١٩٧٥

وهى قصة (صفحة من مذكرات كاتب استقبال) تكاد تكون تكرارا للمعمار المستخدم فى قصة الرحلة التى تحدثنا عنها وان اختلفت قصة (مذكرات كاتب استقبال) فى قدرة الكاتب على اجتياز التجربة بنجاح والاستفادة من التطور اللغوى عنده فى رسم وبناء معمار محكم وفقا لقالبه الذى اختاره من قبل ٠ وظهر واضحا فى قصة (الفكاك من الدائرة) ٠

ثم قصة (المأزق) والتى كتبها فى عام ١٩٨٠ ، أى بعد مرور خمسة أعوام على كتابة قصة (مذكرات كاتب استقبال) ، نراه يعود الى معمار قديم ، بسيط التركيب ، هجره كتاب القصة منذ زمن ، والقارىء لتلك القصة سوف يلاحظ آن هذا المعمار المستخدم كان مفيدا لموضوع القصة ، وان ظهر انه لا يفيدالكاتب كثيرا ويدل على اهماله لبعض ما اكتسبه خلال رحلته فى عالم القصة !

ولا يبقى أمامنا ، ونحن نقرأ تلك المجموعة ، ونتحدث عن المعمار الفنى فى قصصها الا قصتين ، أولهما كتبت عام ١٩٨٢ ، وهى بعنوان (البطل) ، والثانية (السيف والوردة) والتى كتبت فى عام (١٩٨٤) ، أما الأولى أى قصة (البطل) ، فانها لا تكاد

تختلف عن قصة (المأزق) فى معمارها الفنى البسيط .
والقديم ، وليس هـذا عيبا ، ونحن نعتقد أن دراسـة
المعمار الفنى ، سواء كان معمارا بسيطا أو معقدا ،
جميل الشكل أو خال من الجماليات ، لا يكون دليلا عـلى
قيمة القصـة ، انما هو دلالة عـلى قدرة الـكاتب فى
استخدام بناء يفى بالحاجة ، فى دنيا القصة القصيرة
الآن ـ التى تحولت من مجرد (حكاية) الى قول ، فاذا
استطاع كاتب القصة أن يسأل نفسه قبل أن يكتب :
ماذا أريد أن أقول أو هل لدى ما أقوله للنـاس ، من
أقوال جديدة ، لمادة جديدة ؟ واذا كانت الاجابة بنعم،
فانه يقدم على الكتـابة من حيث انتهت أقواله فكتـابة
القصة الآن أصبحت مثل حامل السيف يكاد يشـق به
بطن الخصم أو يفصل رأس عدوه ، لحظة أن تشحذ كل
قواك من أجل احداث ضربة قاطعة ، لا تردد فيهـا ،
ولا وهن ولا ضعف ، تلك اللحظة التى يمكن بتسميتها
لمعان حد السكين عنـدما يبرز من الجراب ، والمعمـار
الذى يفيد تلك اللحظة ، مهما كان شـكله الداخـلى أو
الخارجى ، هو الأجدر بالبناء ، وعليه فان ملاحظة المعمار
لا تفيد الا فى محاولة لفهم امكانات الكاتب وقدراته .
ومدى فهمه للغة القصة القصيرة الحديثة .

وقد فعل هذا حسن الجوخ ، فى رائعته (السيف والوردة) والتى يستحق عليها بالفعل الاشادة ، فهذه القصة من حيث المعمار المستخدم ، تختلف كل الاختلاف عن بقية القصص ، تشعر ان الـكاتب استفاد بعطاء هذا الفن وأخذ منه جرعة كافية كانت له نعم الشراب المقوى ، لهذا نرى أن المعمار الفنى المستخدم ابتعد عن الشكل البسيط ، وأقدم على تركيب البنـاء الصـعب وأجهد الكاتب نفسـه ، لكى يجعلنا نعيش معـه ومع بطليه سواء ذلك (القادم) أو الآخر (المضيف) ٠

واستخدامه البناء المركب ، أفاد فى أن يجعل البناء موحيا وقرأنا الكثير غير المكتوب وفهمنا العـديد من التلميحات التى لم ترد مرسومة على الورق ، وعلى هـذا فان المعمار الموحى ، هو المعمار الأفضل ٠ وهذا ما ظهر واضحا فى قصته الأفضل (موسى الغريب) ٠

● **قراءة فى المحتوى :**

ربما نختلف معـا ـ أيضـا ـ فى هـذه النقطة ، فليست هذه دراسة نقدية تشير بما يجب وبما لا يجب، إنما مجرد قراءة مكتوبة، فأنت تفكر وحدك فى صمت، أو تفكر بصوت ، وكذلك القراءة وأنا أسمى ما أفعله

الآن فى قصص حسن الجوخ ، قراءة مسموعة للقصص وما تديره تلك القصص من أفكار ومجادلات ومناقشات أردت تسجيلها هنا ، حتى يمكن لقارىء غيرى مجادلتى أنا فيما ذهبت اليه ، وذلك اعتمادا على أن ما يقدم فى هذه السلسلة ، من الأعمال الناضجة التى سبق الحكم عليها بالجودة ، مع الاحتفاظ بتقدير درجة الجودة ٠

وكما فعلنا فى القسم الأول من تلك القراءة ، نفعل باذن الله فى هذا القسم الذى سميناه قراءة فى المحتوى ، وسوف نستبعد ذكر تواريخ كتابة كل قصة. حيث أن هذا سبق ذكره ، ويمكن الرجوع اليه ٠

ونقول فى البداية ، ان هناك نوعين من (المحتوى) لهذه المجموعة ، المحتوى الأول هو ما تفرزه المجموعة مباشرة ، والآخر هو ما يمكن اعتصاره من المجموعة ٠

أما المحتوى الأول ، الذى تفرزه المجموعة لأول وهلة هو كما يلى :

١ ــ الاحتماء بالبيئة الشعبية الريفية ، واطلاق أمال وأمنيات بسطاء أهل هاتين البيئتين ٠

٢ ــ التعبير عن الذات المستقلة ، التى تحاول الفكاك من اغلال العمل أو الزمن أو القهر ٠

٣ ــ محاولة الفكاك من أسر الماضى والانطلاق الى عوالم أرحب ، يراها الكاتب ، هى الأفضل ٠

٤ ــ العــوالم المستقبلية التى يراها الــكاتب غير واضحة وتبدو غائمة ٠

٥ ــ الدوران حول الذات والاستفادة بما تفرزه من أحلام ، وتطبيقا لهذا نقول :

ان فى القصص جميعها، نجد هذا الاحتماء بالبيئة الشعبية والريفية ففى قصة السيف والوردة ، نشعر اننا مكدسون داخل حوش به مجموعة حجرات ، نبحث عن الأمن والأمان ، نحاول أن نستر عوراتنا ، ونسد الطريق أمام الجيران حتى لا يعلموا ما بنــا من بؤس ، نتمنى الستر فقط ٠

أما فى الرحلة ، فالقرية الملاذ لم تعد ملاذا ، انما أصبحت غولا يهدد الضيف القادم والباحث عن (الستر)، لا يجده انما يجد الكلاب التى تود نهش لحمه (وهجمت على باقى الكلاب ، تمزقت ملابسى ، والخدوش والتسلخات تفترش جسدى ، كل هــذا يهــون فى ســبيل الحبيبة المأمولة) ٠

أما فى قصة (موسى الغريب) ، فان الغريب قد

وجد الستر ووجد الأمان ، ولكنه فجأة ينهار كل شيء من حوله ، تصبح كل الأشياء عدم ، بعد أن فقد ابنه الوحيد (يركض على غير هدى، وخلفه الأطفال والشباب وقد امتلأت حجورهم بالحجارة والطوب ، واجهته الرجال ، وضاقت عليه السبل ، صار سمكة) ٠

ونجد الحارة فى (حدث في حارة البطل) آسنة ، صامتة ، متخاذلة وان كانت تتمنى أن تمسك بالشر وتقتله حتى تتنفس بحرية ٠ مجرد آمال محشورة فى الدماغ ، كما صورها فى قصة (الدخان والميلاد) ٠

والانفلات من قبضة الحاجة ، والفكاك من دائرة (العذر) وقلة الحيلة تبدو واضحة فى صفحة من (مذكرات كاتب استقبال) وهى قصة جيدة المحتوى ، سوف نتحدث عنها فى الرؤية الثانية للمحتوى غير الظاهر ٠

والعوالم المستقبلية التى يراها الكاتب ، وتبدو غير واضحة لديه ، ولم يقدم لها تصورا ، تبدو فى قصة (الرحلة) و (حدث فى حارة البطل) و (الدخان والميلاد) ٠

أما الدوران حول الذات ، فتشترك فى هذه

الخاصية كل القصص ما عدا قصص : (موسى الغريب) • و (صمتا أيها الضجيج) و (حدث فى حارة البطل) و (البطل !) •

وعموما • استطاع الكاتب ، أن يعبر عن (المكان) الذى اختاره تعبيرا صادقا ، واستخدم فى ذلك أدواته استخداما جعلنا نصل معه الى فهم المحتوى ، واعتقد أن حسن الجوخ ، سوف يختار أماكن أخرى فى مجموعاته التالية باذن الله •

أما المحتوى الذى لا يبدو واضحا من أول قراءة ، فانه يبدو مغايرا الى حد ما ، لما سجلناه فى السابق ، ذلك أن الفهم الكامل للقصة الحديثة ، لا يعتمد فى الأساس على ما يقوله الكاتب فقط وان (الذاكرة) الجيدة لهذا الفن الرائع ، ينبغى أن تحيط علما بظروف الكاتب ، وبالمناخ العام الذى يعيش فيه ، وبمدى ما يحصل عليه الكاتب من حرية فى التعبير ، وحرية فى نشر واذاعة هذا التعبير ، ومدى تقبل المجتمع لما يقوله الكاتب •

فالأديب لا يأخذ القلم ويجلس ليكتب ما يشاء كما يشاء فكما أن للغة التى يكتب بها قواعد وقوانين من أول شكل الحرف الى شكل الجملة الى علاقة كل كلمة بما حولها ، ولا يستطيع كاتب مهما كان أن يفلت من هذه القواعد ، والا أصيب فى مقتل مثل الذى يمسك

بالمسدس ولا يعرف الى أين يصـوبه ، ربما صـوب الى قلبه ، فأداة اللغة لها قواعدها التى تفرضها فرضا على كل من تسـول له نفسـه بأن يتعـامل بهـا ، وكذلك فن القصة ، وأيضـا (الوسيط) الذى تعيش به تلك القصة ، فلا يكتب الاديب قصته من أجل نفسه ، بل يرويها للناس ، والناس لا تقف تحت أشعة الشـمس بالساعات من أجل الانصات الى كاتب القصة ، لهذا لزم وجود وسيط يدفع بقصـة الـكاتب الى القـارىء ، والوسيط يلزمه المال والمكان ، وأشياء أخرى تتراوح من (الرقابة) الى عامل المطبعة ، وهكذا دون أن نشعر نجد أنفسنا نحن الكتاب ونحن ننادى بالحرية ، مجـرد عبيد لهؤلاء الوسطاء الذين يمنحوننا فرصة الظهور أمام المتفرج أو القارىء ٠

ودخول وسطاء على غير قدر كاف بالأحكام الفنية الجمالية لفن القصة ، جعل من المشاع اختلال الموازين واضطراب الاحـكام ، وهبط الى سـاحة (القصص) ، العديد من مدعى هذا الفن ، وفى أيديهم صحائف من كل الأقطار تشهد لهم فى فن القص بالاقتدار ، وامتلأت الساحة بخليط من المدعين والهواه والتـلاميذ ، عـلى حسابهم تدفق نهر (النقد) الذى يفيض على من يهدى

ويمتنع عن سواه ، وشاء الله لفن القصة ، أن يشهد الكثير من العباقرة والأفذاذ ، بشهادة (نقاد) أرادوا (الظهور) ، فكثرت الألقاب ، وانقلب الحال الى فوضى، وقد آن الأوان لكى تعود الأمور الى نصابها ، فليس كل من خط على الورق الأبيض حروفا سوداء بكاتب قصة ، وليس كل من قال (ولكن) بناقد يشار اليه بالبنان ، فالصحيح هو الصحيح وهو الذى يبقى أما ما دون ذلك فهراء سوف يزول ٠

وقد ساهمت هذه السلسلة فى اعادة التوازن الى القصة القصيرة ، ولولا سقوط بعض اعدادها القليلة فى (يد واحد) من هواة المبالغة ، لمضت ، وهى فاعلة باذن الله تعالى الى طريق الرفعة ٠

نعود الى (المحتوى) كما يجب فهمه ، والمراد هنا المحتوى الفكرى للكاتب الذى (يغرف) منه لكى يسقى قصصه ، فان الفكرة الواحدة فى القصة لا تكفى للدلالة على (فكر) كاتب القصة أى كما قلنا مذاكرة هذا الكاتب مذاكرة متأنية غير متعجلة ، وهذا ما فعلته مع الصديق حسن الجوخ ، فقد عايشته فى مجموعته ، مدة طويلة ، ربما جعلت من كلفنى بهذه الدراسة قلقا ، وعايشت الكاتب شخصيا فترة طويلة ، واقتربت منه

وان كان هذا أحد العوامل التى جعلتنى أتلكأ فى الكتابة فى هذه القراءة . فقد خشيت القسوة عليه ، كما خشيت التعاطف معه ، وكلاهما مضر بعملية القراءة والمذاكرة ٠

★★★

حسن الجوخ ، يتميز بحس لغوى جيد ، وتميزه اللغوى يعطيه درجة سبق على بقية أقرانه ، لأن من الشائع الآن الوقوع فى الأخطاء وعدم الاهتمام بمكونات اللغة ، والاستفادة بمفرداتها ، ولأن الكاتب ، يعد من دارسى اللغة العربية دراسة أكاديمية ، فان محاسبته على (الخطأ) ستكون محاسبة قاسية ، ودون استناد الى أمثلة، نقول أن حسن الجوخ كانت لديه فرصة اعادة تركيب بعض الجمل فى قليل من قصص هذه المجموعة ، وحتى لا يفلت منا الزمام ، سنورد مجرد عينة للتركيب اللغوى الذى يعطينا هذا الاحساس ٠٠

فى أول قصة (السيف والوردة) يقول (حتى هذه اللحظة لم أنس زمجرة النهر داخله) ويقول بعد سرد صفاته (يشعر حتى بهسيس الأرض تحت قدميه) ولا أدرى ما هذه الـ (حتى) !

في قصة (حدث فى حارة البطل) يقــول (رآه رمضان الكباجى ، وهو يدفع عربته الخشبية الصغيرة فى مدخل بيته) ثم يقول فى الفقرة الثانية ، لمحه فتحى أفندى من فوق درابزين شرفته ، وهو يطالع رواية ، وهكذا نجد فى كل فقرات القصة ، كلمات رآه ولمحه وأبصره وشافه ثم (وهو) ، وحاولت قراءة القصـة أكثر من مرة لأعرف على من تعود(وهو) هذه ، ما المقصود بحرف (الواو) ، على من تعود ملكية هذا الحرف ، بعد عدة محاولات وجدت انها زائدة ولا محـل لوجودها ، لأن المقصود به الرؤية والشوفان (كائن) آخر وأعتقد انه لا يستقيم المعنى بهذا الشكل !

وهناك أمثلة أخرى ، ولكنها ، فى حجم المثال الذى سقناه ، وهى أمور هينة لا تقاس بتلك المصائب التى نراها فى قصص (الكتـاب العباقرة) الذين يمثلون الأدب المصرى الحديث فى الندوات العالمية ويتحدثون باسمنا فى عواصم المدن المستنيرة ، ولأن هذه العواصم لا تعرف اللغة العربية ، فهم هناك، فى مأمن من الرقابة يقولون ما يريدون !

نعود الى المحتوى الفكرى ، مرة أخرى ، بعــد أن تجولنا فى أروقة المجموعة وتحدثنا عن العام وتركنـا

الخاص • ولأن قصص حسن الجوخ موحية بهذا الاسترسال ، فان هذا يدل على علامة صحة لمجموعته • •

والشكوى المرفوعة من الباحث عن الحب فى (الرحلة) والتذمر المشلول من (كاتب الاستقبال) ، والفقر الذى يعانيه كاتب القصة فى (الدخان والميلاد) وتلك الآهة الذبيحة فى (موسى الغريب) وهذا الخوف المحموم فى (السيف والوردة) بالاضافة الى فحيح الأفعى وشبح الخوف الرابض فى كل أرجاء الحارة فى (حارة البطل) وكل تلك الأحاسيس التى تعانى، والتى تشنق بحبل منسوج بالحديد والنار ، والمغروسة فى وحل الحاجة ، إنما تعبر عن عالم حسن الجوخ ، تعبر عن صدق تفاعله مع بيئة بعينها ،لم يحاول الترفع عنها، أو الحديث معها حديث محاور يلذ له الاستماع إلى اجابات متوترة لخصمه المقهور ، ولم يندفع شاكيا باكيا متحسرا على عالمه ، انما حاول أن (يعبر) عن هذا العالم بأمانة مخلصة ، عابرا طريق الصدق مع الذات، فلم يعرضها لتدخل مرفوض، ولم يعبأ بتوترها الخاص، فجاء بما أدركته تجربته القصصية ، وأعتقد أنه لم يبلغ كل ما توصل اليه وان لديه المزيد من (القول) حتى يعتصر هذه التجربة ، ونقرأ معه عنها وحولها •

وعالم (حسن الجوخ) كمـا يبـدو فى مجموعته (السيف والوردة) عالم محدد الهوية ، واضح القسمات، تستطيع أن تتعرف عليه من خلال (الضيف والمضيف فى قصة السيف والوردة ، والاحسـاس بالحصـار من الداخل والخارج ، وتستطيع أن تحسه فى ذلك المشـهد الفريد لموسى الغريب فى القصة التى تحمل اسـمه ، وهو يندفع باحثا عن وحيده ، بعد أن فقـد العقـل والولد ، أصبح غريبا بالفعل لا بالاسم ، ويأخذك موسى الغريب فى دوامة الاحتفال القروى بعيد شم النسيم ، انك تطوف مع البطل الذى وضعوه تحت الرءوس ، ثم قذفوا به الى الماء فراح يدور فى دوامات قلقة ، وأخذ معه رأس موسى الغريب ٠

وترى عالم حسن الجـوخ ، فى كشـك التـذاكر والكاتب يقف فى تحدى أمام غطرسـة الأقوى ، حتى يطرد من ذلك العـالم الضـيق رغم خوفه من العـالم الأرحب ٠

ويحشرك الكاتب فى عالمه ، الذى اختـاره ، لـكى تكتم أنفاسك وانت مع كل هؤلاء الناس الذين انحشروا معك فى هذا (الكشك) الضيق ، لكى تصرخ معهم !

★★★

وكما بدأنا القراءة ، وقبل أن نتوقف ، نقول ، ان هذه القراءة لا يجب أن تقف دون الاجتهادات النقــدية التى نطمع فى سماعها حتى تكتمل الصورة ؟ •

فتحى سلامة

المحتـويات

صدر من هذه السلسلة :

١ ـ شوارع تنام من العاشرة	(قصص)	أحمد محمد حميده
٢ ـ باب الريح	(قصص)	نبيه الصعيدى
٣ ـ حكاية عروسة البحر	(شعر)	حجاج الباى
٤ ـ الدم وشجرة التوت الأحمر	(رواية)	محمد عبد الله عيسى
٥ ـ وقائع موت الجياد	(شعر)	عصام الغازى
٦ ـ الشاطر حسن ·· يخيب	(قصص)	عبد المنعم الباز
٧ ـ ··· وعائد اليك	(شعر)	المنجى سرحان
٨ ـ مهزلة عائلية	(مسرحية)	جمعة محمد جمعة
٩ ـ قصاصات حب	(قصص)	اسماعيل على
١٠ ـ تاريخ يؤرقه الظمأ	(شعر)	مشهور فواز
١١ ـ بقايا انتظار	(قصص)	عبد الفتاح منصور
١٢ ـ اعدام قيس بن الملوح	(مسرحية)	محمد عبد العزيز شنب
١٣ ـ نقوش الدم	(رواية)	رجب سعد السيد
١٤ ـ تأملات فى وجه ملائكى	(شعر)	عبد الله السيد شرف
١٥ ـ الصعود الى القصر	(قصص)	مصطفى الأسمر
١٦ ـ اغتراب ··	(شعر)	ناجى عبد اللطيف
١٧ ـ والفجر	(قصص)	جمال نجيب التلاوى
١٨ ـ فيضا يكون العشق	(قصص)	عبد المجيد أحمد
١٩ ـ حكاية الديب رماح	(قصص)	خيرى عبد الجواد
٢٠ ـ خديجة بنت الضحى الوسيع	(شعر)	السماح عبد الله
٢١ ـ فارس آخر زمن	(قصص قصيرة)	حسن شلنده
٢٢ ـ شهر زاد	(شعر)	نجوى السيد
٢٣ ـ من ثقب الحزام	(قصص)	محمد هويدى
٢٤ ـ العطش	(شعر)	فاروق الأفندى
٢٥ ـ الزحمة	(مسرحية)	نصر الدين رحمى
٢٦ ـ تداعيات العشق والغربة	(شعر)	صلاح والى
٢٧ ـ السيف ·· والوردة	(قصص)	حسن الجوخ

العدد القادم

رحيل م٠م (شعر) مهدي مصطفى

تطلب كتب هذه السلسلة من :

- باعة الصحف
- مكتبات الهيئة
- المعرض الدائم للكتاب بمقر الهيئة
- مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم
- منافذ التوزيع فى مكان وفروع الثقافة الجماهيرية وهى كما يلى :

  - الوادى الجديد .. الداخلة والخارجة
  - البحيرة
  - المنيا
  - سوهاج
  - بورسعيد
  - دمياط
  - فارسكور
  - القليوبية (بنها)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٤٥٩١

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٨٣٩ ـ ٧